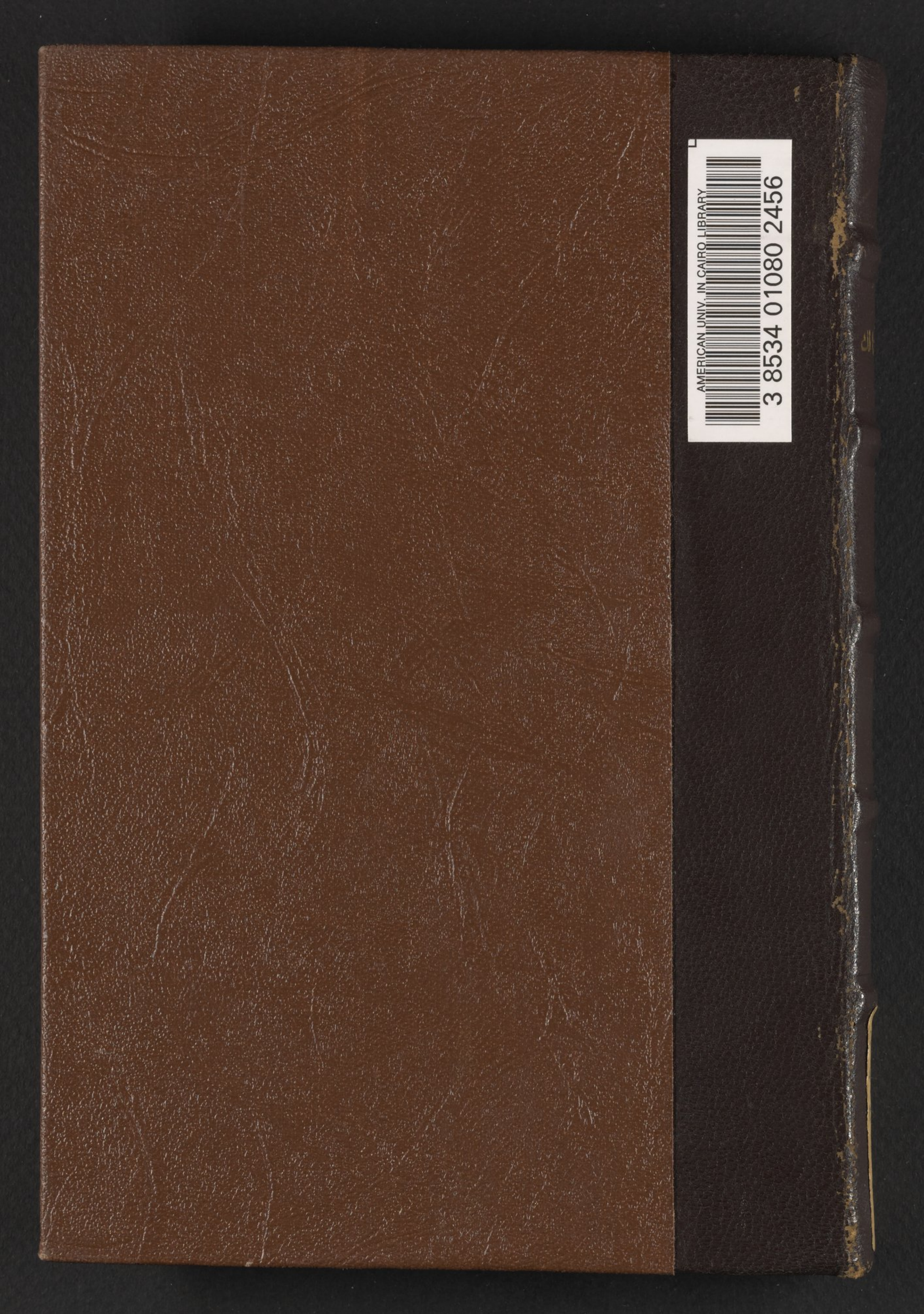
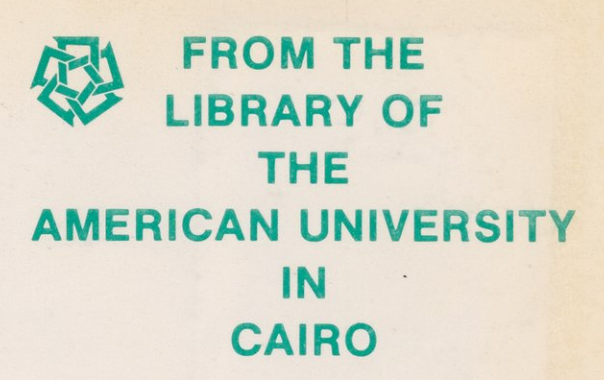
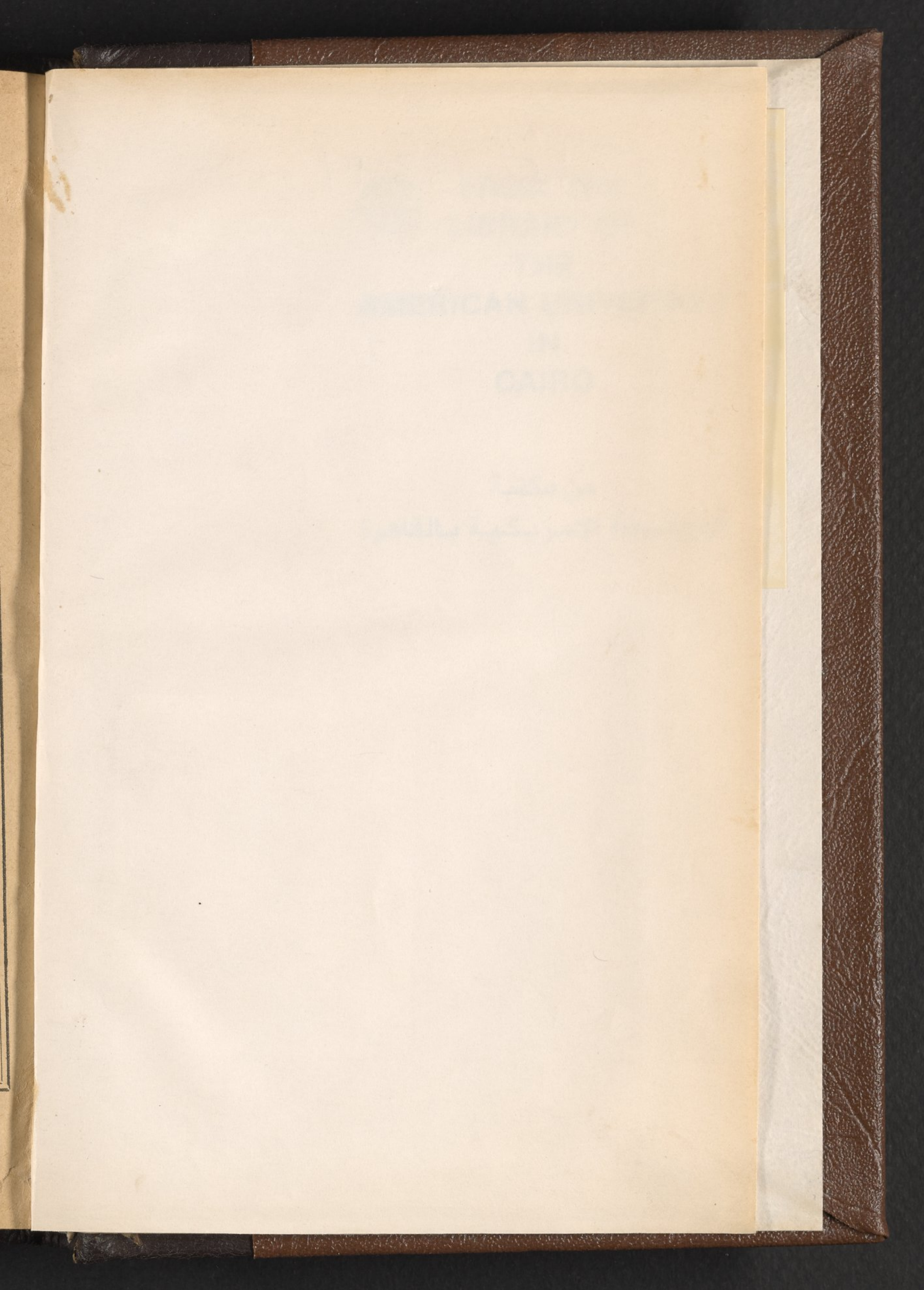
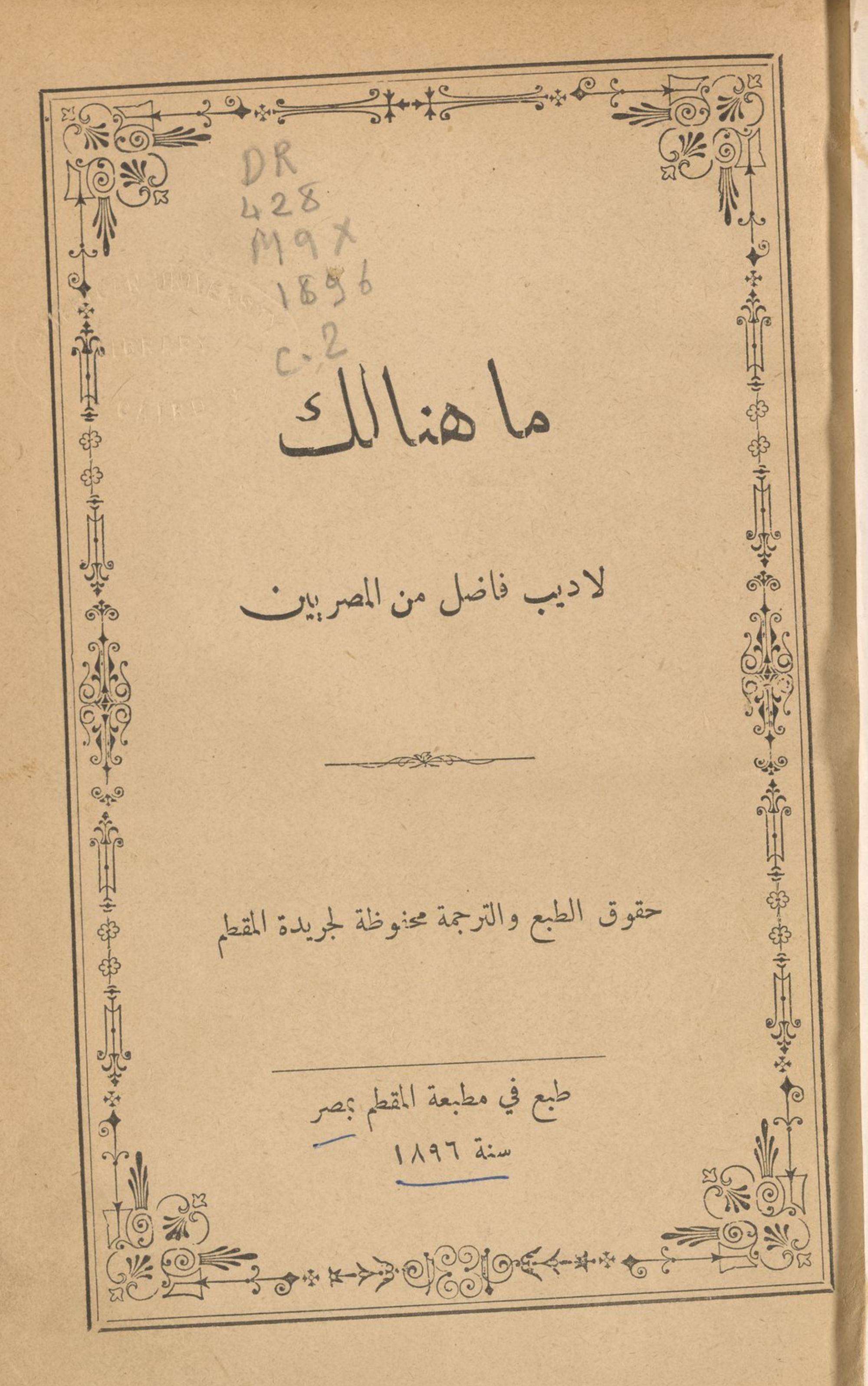

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01080 2456







ما هنالك

لاديب فاضل من المصريين

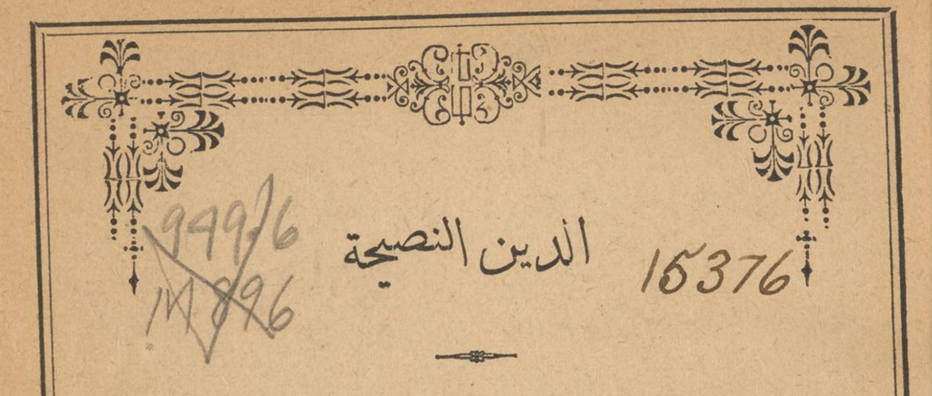
طبع في مطبعة المقطم بمصر
سنة ١٨٩٦



وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ

هذا ما رأيناهُ واجباً علينا من ذكر المضار لتجتنَب والمنافع لتجتلب واسنا نجد مقدمة تليق بهذا الكتاب في بيان غرضنا الذي نقصدهُ منهُ ونحاولهُ فيهِ . ونكشف للناس الاسباب الشريفة الَّتي دعتنا الى وضعهِ ونشرهِ سوى مقالتين احداهما لاحد ائمة الاسلام العظام وثانيتهما لفاضل كان يمضي مقالاتهُ بحرف الياء في جريدة المُقطَّم

قال الامام المُعظَّم في مقالتهِ



الدين النصيحة

ان منا من يتظاهر بان تنبيه الدولة إِلَى ما هي عليهِ من سوء الحال مروق وضلال . وليتهُ مع ذلك يكتفي من هداهُ بالامساك عن التنبيه بل يتطرف إِلَى تحسين القبيح وتزيين السوء واطراء الذميم إِلَى مثل ذلك مِمَّا يزيد الدولة تورطًا في المزالق وتوغلاً في الخلل وتخبيطًا في الفساد وشططًا عن السداد ويتبجح بان هٰذا هو الحب والإخلاص والولاء . فياليت شعري ما عسى ان يكون البغض والغش والتلبيس لديهِ بعد هٰذَا . وقد لا يبلغ العدو من عدوهِ بالحرب والقتال ما يبلغ منهُ بهذا التوريط والتضليل

ولا اقبل ان انسانًا يعمل عَلَى توريط دولتهِ إِلَى هٰذَا الحد وهو صحيح المزاج فان النفس لا ترضى من عز الملك بديلاً فهي بطبيعة الوجدان لا تنبعث إِلَى ما فيهِ وبال ملكها وتدمير سلطانها بل هي متجهة بفطرتها إِلَى تأييد دولتها وسلامة عرشها وانما ما ذكرناهُ هو مذهب قوم استؤجروا عليهِ لسقوط مروءاتهم وفساد مزاجهم

وقد يحتج لنفسهِ صاحب هٰذَا المذهب لدفع الخجل او تلطيفهِ بان في تنبيه الدولة دلالة لعدوها عَلَى مغامزها وهو مستوفز يترقب فرصة للوثوب عليها فليس المنبهُ الأَّ كرائد العدو فهو يجلب عليها الضرر من

حيث يقصد النفع وذلك فعل الصديق الجاهل فمن الحزم تعظيمها في عين عدوها حتى يقع في روعهِ انها قويَّة عزيزة منيعة الجانب فييأَس منها وينقطع طمعهُ فيها ولعل الله بعد ذلك يبعث فيها منبهاً فتنبعث إِلى لمّ شعثها وتقويم أَودها واستعادة مجدها الاول وسؤددها التالد

وهٰذَا الاحتجاج غش وتدليس ايضاً. اما اولاً فلأَن عدوها متنبه يقظ متأَمل فهو ابصر بمغامزها واخبر بدخائلها بل مطلع منها عَلَى ما لم نحط بهِ خبرًا وانما تصادم المطامع فيها اوقف كل عدو يترقب غفلة الآخر او اشتغالهُ بسواها او يحاول التالؤ مع ثانٍ ليتناصرا عَلَى قطع الطريق اليها ويتساهماها . فليس في تنبيهها ما يكشف للاعداء شيئًا فيها قد كان عنهم مستورًا بل لو تنبهت لوجدت من تصادم المطامع فرصة تمكنها مِن الاستدراك . واما ثانياً فلانهُ اذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهي بادية للعيان فأَهونْ بهِ عدوًّا اذ لا يبلغ الجهل من دولة هٰذَا المبلغ وهي في عالم الاحياء . واما ثالثًا فلأَنهُ اذا خيف عَلَى الدولة عاقبة التنبيه كان الخوف عليها من التمادي على الخلل اشد فانهُ اعجل من العدو سيرًا واسرع بطشًا واسوأُ تأْثيرًا . على ان قارعة العدو قد تدفع او يحتال لها ولا دافع ولا حيلة لقارعة الغفلة وسوء التدبير . وكذلك منا من يحسب ان تنبيه الدولة ضرب من العبث وانما هو فضيحة من غير جدوى فقد اصبحت بحيث لا ينفع القول فيها على انها قد سدت سبيل النصح عَلَى نفسها لشدة حظرها على جرائدها ولمنعها الجرائد الاجنبيَّة من طروق ديارها ما دامت تحمل النصح اليها ولئن طرقتها من سبيل خفي فانها لا تخترق حجاب امير المؤْمنين ولئن اخترقتهُ بحيلة

من الحيل فانها تصادف حول عرشهِ ملأً من الغاشين المحتالين الذين عدلوا بهِ عن تدبير الملك وعرفوا كيف يقلبون النصح في عينهِ غشّاً يعود عليهِ في ذات نفسهِ

وهٰذا رأْي من لا خبرة لهُ بالشرع ولا دراية عندهُ بتأْثير القول. فاما الفضيحة فلو كان في اتقائها خير باطلاق لتعطل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولما كان الدين النصيحة لله ولرسولهِ والائمة المسلمين كما قال صلوات الله عليهِ وكررها ثلاثاً . ولما قال الفاروق رضي الله عنهُ من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوّمهُ . واي شرع ام اي عقل يأْمر باتقاء الفضيحة في درء المفاسد . ومع كل ذلك فاي عورة مستورة منا حتى نتقي الفضيحة من كشفها . واما عدم نفع القول فمن المكابرة في الواقع وهل كان كون او فساد في بداوة او حضارة الاَّ بفعل القول من تأْليف وتنفير وتحذير وتطمين ووعد ووعيد وتثبيط وتهييج وتسكين وتحريك إلَى غير ذلك من افانين اللسان وضروب البيان . وهل الانبياء صلوات الله عليهم دعوا الخلق إلَى الاديان باكثر من قوة اللسان وهل الكتب السماويَّة تنزلت الاَّ بالبيان وهل ثارت احقاد او سكنت والتحمت ملاحم وانفصلت وأُريقت دماء او حقنت بمثل القول وشبه اللفظ . ولمَ أُقيمت المنابر وخطب الخطباء ووعظ الوعاظ وسعى المبشرون والدعاة وشرع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. اليس الاَّ لسر اللسان وحكمة البيان وفضل الكلام . وبالجملة فهل في الدنيا شيء من عظائم الامور الاَّ وهو غرس اللفظ وحصيد النطق . وعلَى كل حال فالامر في ذلك اوضح مِن ان يحتاج إلَى اطناب . وانما ليس لثمرة القول ابان محدود فقد

تسرع وقد تبطئ . وربَّ رجل يتكلم كلمة لا يؤبهُ لها في جيلهِ فتثمر في جيل آخر ثمرة يتمتع بها اهل الارض جميعاً. فادعاء ان الدولة لا ينفع فيها الكلام حماقة وجهالة

واما الحظر عَلَى الصحف الداخليَّة ومنع الخارجيَّة من طروق الديار فهو قول ضعيف الحيلة . اما ترى من هو من اعظم الملوك لا تكاد تقع يدهُ اينما وضعها الاَّ عَلَى كتابات الطوائف تارة تحت وسادة منامهِ وأُخرى في صحفة طعامهِ ومرة عَلَى مكتبهِ وحيناً بين دفتي كتبهِ . فلو صحت منا النيَّة وصدقت العزيمة ما اعوزتنا حيلة ولا بقي في نفسنا نصح مستور عَلَى امير المؤمنين

واما الملأُ الذي دار بعرش الخلافة فأَهون من الهوان وليس اعتقادنا فيهِ القدرة عَلَى قلب النصح غشًّا الاَّ وهما منشأُهُ دوام قربهِ من عظمة امير المؤمنين مع ما هو عليهِ ممَّا يوجب ابانتهُ واقصاءهُ ومهما يكن من قدرتهم عَلَى مقاومة الحقائق بالشعوذة فان من اساليب الكلام ما لا تنفع معهُ شعوذة ولا يأْتي عليهِ سحر ولا تدفعهُ حيلة . وبالجملة فالحق اكبر من ان يكافح ولئن ثبت الباطل امامهُ مرةً فقلما يثبت اخرى ومآلهُ إِلَى الفرار عَلَى كل حال وحينئذٍ فترك النصح تعللاً بذكر الملإِ هو من قصور الرأي او فتور العزيمة

وان منا ايضاً من يزعم ان داء الدولة قد ازمن وتأَصل بعد ان استفحل وفشا في عروقها . وانبسط وسرى في دمها . وامتد وتشعب في اعصابها . وصار لا يرجى برؤُهُ حتى يعالج بل لا يؤمل تلطيفهُ حتى يداوى كما قطع بذلك حذَّاق اطباء السياسة . عَلَى ان داءها يستوي

في معرفتهِ الطبيب وغيره ُ كما يستويان في معرفة الاكمهِ والاعرج والمجدوع وامثالهم من ذوي العاهات المفضوحة . واذاً فالنصح لا يورثها الاَّ التنغيص ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك

وهٰذا ما عليهِ كثير من كبار الدولة وهو يأس استحلوا بهِ تناهب اموال الدولة والمسلمين ليدخروها وقايةً لهم واهليهم من الفاقة بعد انحلال الدولة خاب ظنهم وكذب حدسهم . وما الداعي حاسبهم الله لهذا اليأس والدولة بحمد الله لا تحتاج في استرجاع عظمتها إلَى غير لفتة واحدة من امير المؤمنين فما عليهم لو بذلوا جهدهم بل مالهم لا يبذلون نفوسهم في تلك اللفتة عوض افراغ وسعهم في اغتيال اموال المسلمين فان نجحوا كانوا مشكورين وان لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين. وما يدريهم لعل الله عند العزم وحسن القصد يخلق من الضعف قوة فكثيراً ما كان ذلك. وليس بعزيز ان يكون اصلح الله شأنهم او عوّضنا خيراً منهم رجال من أُولي العزم تهون عليهم نفوسهم في مصلحة الدولة وعامة الامة

وبعكس هؤلاء فئة ترى ان الدولة بريئة من العيوب قويّة لا ضعف بها وانما تحازب الاعداء عليها وتمالؤُهم على اضطهادها وتقوّمها من عناصر متخالفة لا تنفك تتنافر ميلاً إلَى الانفكاك ومساعدة الاعداء لتلك العناصر كلما شغبت — كل ذلك خيل لنا ان الدولة هرمت وخارت قواها وانحلت عزائمها وليس الامر كذلك في الواقع ولو كان مكانها اعظم دولة من دول اوربا ما جلدت على احتمال ما هي تحتمله ُ ولا صبرت لمعاناة ما تعانيهِ واذاً فلا يرميها بالضعف ولا يتهمها بالخلل

الاَّ عدو يريد بث الفساد بينها وبين تبعتها او تقوية جأش اعدائها عليها وان ظهر بمظهر الناصح الامين

وما اعظم هٰذا الرأي وقعاً في ذوق السذج الذين لا إشراف لهم على الحقائق حيث يقوم بهِ لديهم عذر الدولة عند طاطأة رأسها لكل نازلة تضع من قدرنا وتدك طود شرفنا وهي قد تكون اقل مما يسعنا دفعهُ . ولكن ما ابعدهُ من الحقيقة وما اقصاهُ عن الصواب كما لا يخفى على مَنْ لهُ المام بنسب الدول وموازنة قواها . فان دولتنا في ميزان الدول العظام أخفهنَّ على الاطلاق كفةً واقلهنَّ رجحاناً ولا يناقش في ذلك الاَّ من هو بمعزل عن العالم . اما الاعتذار عنها بتحازب الاعداء وتخالف العناصر فهو الحجة عليها ولولاهُ ما رُميت بالتقصير ولا احتاجت إِلَى النصح والتنبيه كما انهُ لولا مثلهُ في جميع الدول ما اضطررن إِلَى تجنيد الجنود واقامة المعاقل والحصون وبذل الاموال الطائلة في الآلات والاستعدادات . وهل الدنيا من اول نشأتها الاَّ على هٰذا الحال وهل كانت فنون الحرب واختراع آلات القتال الاَّ لهذا السبب . وحينئذٍ فليس بغاشٍّ من يستلفت الدولة إِلَى ضعفها ويستنهضها الى تدارك شأنها بل هو الناصح الامين فليضع نفسهُ كل رجل من رعيتها حيث يريد هٰذا وحيث ان لكل معلول علة ولا يمكن استئصال المعلولات الاَّ باستئصال عللها فعلى من يريد ان يضع نفسهُ من الدولة موضع الناصح الصادق ان يبحث عن علة ضعفها واصل خللها ثم يحاول استئصال الاصل بما يراهُ ناجحاً من عقاقير النصح ترياقاً كان او سموماً فانهُ ان فعل يوشك ان ينجح ان شاء الله

الامة العثمانيَّة

يُقضى عَلَى الامة في ايام محنتها بالذهول و يعتريها الخمود وهي تُصلى بنار المظالم فيحسبها الجاهل الذي لا ياخذ بغير الظواهر انها في خير حالاتها راضية مطمئنة غير باكية ولا شاكية . و يصور لهُ جهلهُ ان تنبيهها واستفزازها إِلَى تبديل ما هي فيهِ عدوان عليها وايقاع بها وضرب في مفاصلها لتثور فتتمزق . وان ما بها من السُّبات خير لها من اليقظة وان البقاء عَلَى الموجود اولى من التطلع إِلَى المفقود . والشر كل الشر في ما يفيق وينبهُ ويدعو الى الحراك وان الداعي الى ذلك شاق لعصا الالفة خارق لحرمة الاجماع مبتغٍ للفتنة والشرور ساعٍ في هتك قناع الامة وتمزيق اثوابها يتربص بها ريب المنون . فمثلهُ كالذي يمرُّ بالمغشيّ عليهِ فيظنهُ متنعماً بلذة الراحة البدنيَّة اذا انت نبهتهُ آلمتهُ . وانما هو ميت ان لم تنبههُ . ومن كان جاهلاً بالطب تساوت لديهِ السنة عن مرض والنوم عن صحة

ولكن العالم باخلاق الامم اذا رأى امة عَلَى تلك الصفة نبذ الظواهر وعمد الى كشف البواطن فيتضح لهُ ان ذلك السكون والذهول انما هو داءٌ خدرٍ في الافكار ان دام بها قضى عليها ولا يعوزها للشفاء منهُ الاَّ تنبيهها اليهِ . واصل هٰذَا الخدر هو الحذر والتخوف من سلطة قادرة قاهرة ربما تلاشت مع ذلك ولكن يبقى اثرها في الاوهام ثم تعمل العادة عملها فتلهي الامة عن البحث عن اسباب هذه القوة القاهرة اُلَّتِي استكانت لها النفوس وعن كونها هي مصدرها . وكم نحتَ الانسان الحجر بيدهِ

ثم يعتقده الهاً فيعبده وتستمر بهِ العادة فيخافهُ ويرهبهُ موقناً انهُ القادر القهَّار فوقهُ لا يزال هكذا ذاهلاً حتى ياتيهُ من يخبرهُ انهُ يعبد من دون الله ما لا ينفعهُ ولا يضرهُ فيستيقظ من غفلتهِ حينئذٍ ويتذكر انهُ يعبد حجرًا من صنع يدهِ فينثني عن عبادتهِ ويتبين لهُ وهمهُ فيترك الضلال الى الرشاد

وكذلك كان الحال في الامم منذ الازمان الخالية يسود الرجل الفرد الضعيف عَلَى الملايين من النفوس فيظلم ويجور ويسلب ويهتك وهم ذاهلون لا يقدرون عَلَى الانين فاذا جاءهم من يوقظهم من رقدتهم نفضوا غبار الاوهام عن اثوابهم وقاموا يطلبون حقوقهم المفروضة اَلَّتِي لا عيش بدونها . ويجوز لفرد واحد ان يوقظ امة كما جاز لفرد واحد ان يرقدها

وحالنا فيما نكتبهُ عن البلاد العثمانيَّة هو اننا نريد تنبيه الامة الى دائها لتنقذ نفسها من سوء المظالم ومن التمزق والتشتت الذي لا بد ان يلحقها ان هي بقيت عَلَى حالتها الحاضرة الموجبة لتداخل الاجانب في املاكها تداخلاً يفضي بها إِلَى الانحلال والانفصام كما نشاهدهُ في المسأَلة الارمنيَّة وما قبلها من المسائل وما سيكون بعدها ولاجل ان تصير لها حكومة صالحة الادارة منظمة الاحوال كبقيَّة الامم المجاورة لها حتى يطيب لها عيش في هذه الحياة . وينحصر غرضنا في ذلك وراء غايتين اعلان ما يخفيهِ عنها الظلمة من سوء احوالها وارشادها إِلَى المطالبة بحقوقها كما يكون الدواء بجانب الداء . ومن حقوقها انها تطالب الحكومة بالاصلاح وتنفيذ القانون الاساسي واعادة مجلس المبعوثان

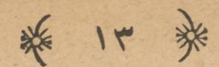
وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة امام الامة والتفسيح لحريَّة الافكار كما هو موجود في ادنى دولة من دول اوربا . وهٰذَا النظام وحدهُ هو الكافل لتحسين حال الامة العثمانيَّة وحفظها من التفريق والتمزيق وببركتهِ تصير قادرة عَلَى صد كل طامع فيها . وامامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف ان امة صغيرة تغلب امة عظيمة هي عشرة امثالها بفضل هٰذَا النظام

فان رمانا الجهل بمن يقول ان الامة العثمانيَّة لا ينفعها هٰذَا النظام ولا يصلح لها ولا تقاس بسواها من الامم لاختلاف الاجناس والاديان والمذاهب فيها احلناهُ عَلَى احد التلامذة في المدارس ليعلمهُ ان ذلك ما لا تكاد تخلو منهُ دولة من دول اوربا . وهذه دولة النمسا اقرب الدول جوارًا للدولة العليَّة تتألف من جهة الاديان من كاثوليك ومسلمين وارثوذكس وبروتستانت ويهود وتتشكل من جهة الاجناس من بولونيين وبوهيميين والمانيين وطليانيين ومجريين وصقالبة وما منعها ذلك من حسن النظام الذي هي عليهِ

فما الذي يمنع الحكومة العثمانيَّة من مباشرة هٰذَا النظام الشوري الذي يأمر بهِ الشرع الشريف من طريق الخلافة ويدعو اليهِ الحزم من طريق السلطنة . يمنعها عنهُ ان الامة لم تهب للمطالبة بهذا الحق فتجبرها عَلَى التسليم بهِ . واهل الحكومة يصبون البلايا عَلَى رؤوس الامة ليباعدوا بينها وبين هٰذَا الطلب لان فيهِ سدًّا لمطامعهم . وفائدتهم من الحال الحاضر جزيلة فهم يعتقدون ان امر دولتهم آخذ في التلاشي والانحلال وليس لديها ما تدفع بهِ اطماع الدول ولئن نجت منها اليوم

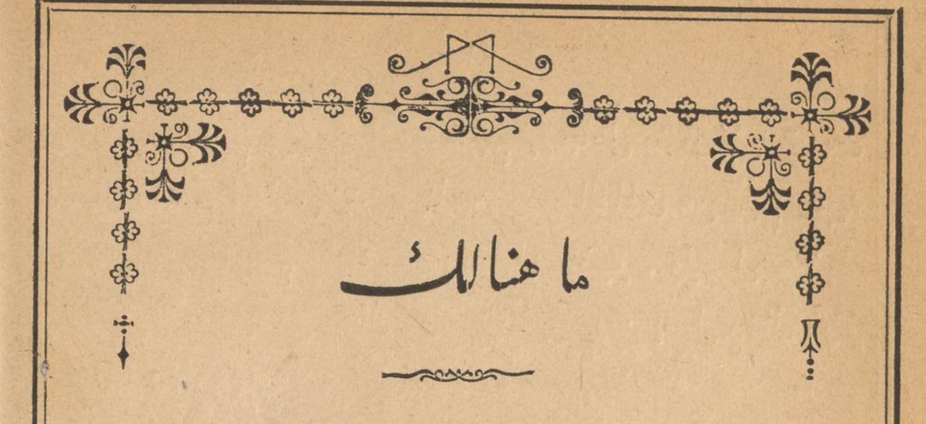
فلا تنجو في الغد وما هي الأمدة ثم تنقضي فينتهزون هذه الفرصة لاتخاذ الاحكام واسطة في احراز الاموال فالسابقون السابقون اولئك هم المقربون والفائز من اخذ نصيبهُ وبادر الى سهمهِ . وصارت الامة في اعينهم بمثابة بيت اصابهُ الحريق فينثال حولهُ الشطار من كل حدب لنهب ما احتواهُ من اثاث ومتاع والسعيد من اختطف شيئاً قبل ان تلتهمهُ النيران وعلى ذلك فلا مناص للاحرار من كشف الستار عن هؤلاء الحكام والتشنيع عليهم وتشهيرهم في انحاء العالم حتى يعدلوا عن ذلك الرأي الذي ملأ رؤوسهم يأساً واستبدلوا ذلك الاعتقاد بان الامة العثمانيَّة دواؤُها في يدهم وهي ابعد الامم عن التلاشي والانحلال اذا هم ساروا بها في طريق الاصلاح وان المجد في احياء امة خير من المال في موتها . فان لم يرغبوا في هذا الخير ولم يعدلوا عن طريقهم كان الواجب على الاحرار تنبيه الامة لتطالب هي بحقوقها

هذا غرضنا الذي نرمي اليهِ ونسعى لهُ اما ان يأمر الحكام بالعدل واما ان يمتثلوا امر الامة في اجرائهِ . ولا نبغي بالامة العثمانيَّة الاَّ احدى الحسنيين . ولسنا نبالي بقول من يقول من ارباب الافك والبهتان ان ما نكتبهُ عن الدولة العليَّة ناشئ عن عداوة لها ومحبة في الانتقام والتشفي وتفريق الجامعة العثمانيَّة الَّتي لا يدركون لها معنى . ولو كان ذلك كذلك لكنا اليوم في صف اولئك المنافقين نرمي دلونا بين دلائهم نحسن القبيح ونطري الظالم ونخفي على الامة سوء احوالها ونلبس الامور عليها غشاً وايهاماً ونجتهد في ما يزيد في غفلتها حتى تسقط في وهدة الخراب والدمار . اولئك هم الاعداء حقاً ومن



يلتفت إِلَى اقوالهم ويركن إِلَى ترهاتهم فهو جاهل مغرور لا يفرق بين الضار والنافع . وليس ينكب بنا عن ردع الظالمين عن ظلمهم وتنبيه الغافلين إِلَى حقوقهم افتراءُ مفترٍ ولا قول كاذبٍ . وليعمل كلٌّ عَلَى شاكلتهِ "ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يرَه ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يره"





ما هنالك

المقالة الاولى

في احوال السلطنة العثمانيَّة

كان السلاطين من آل عثمان غير الفاتحين منهم وغير ذوي الاعمال العظيمة الَّتي زينَّت تاريخهم بالفخار والمجد يقضون اوقاتهم بالملاهي واللذات في قصورهم ولا يشتغلون بامور الدولة الاَّ اذا تكلفوا التصديق على الاوامر المرفوعة لهم من صدورهم العظام. وكانت السلطنة العثمانيَّة مع ما كان يلحقها في ازمان حكمهم من شؤم الحروب بسلخ البلاد عنها رابضة ربوض الليث على آجام البسفور يخافها من يغلبها لما رسخ في النفوس من شجاعة الاتراك وبسالتهم وكانت أعلامها المحاذية للهلال والنجم رفعةً وجلالاً تخفق في الشرق فتخفق منها القلوب في الغرب

وكان السبب الوحيد في بقاء السطوة والجلال لها مع تلاهي اولئك السلاطين هو ان أُمور السلطنة كانت موكولة الى صدور ووزراء من أشهر الرجال في أعصارهم حزماً وعزماً كانوا يخافون من يسألهم من فوقهم فان أخطأُوا مرة أصابوا مراراً. وما زالت الدولة تقوم وتقعد في هذه التقلبات يأتي سلطان عظيم النفس كبير الهمة فيرفع شأن السلطنة ببذل نفسهِ الشريفة في سبيل المجد لتشييد اركان الدولة بما يعانيهِ ويقاسيهِ من الحروب والفتوح مع فحول قوادهِ المجربين ويأتي سلطان يركن الى الدعة واللهو فيحفظ شأن الدولة ونظامها بمن ينتخبهم من ذوي الكفاءة من الصدور والوزراء حتَّى حصل ما حصل من خلع المرحوم السلطان عبد العزيز والسلطان مراد

ولما استولى على عرش آل عثمان جلالة السلطان عبد الحميد الثاني في غمرة تلك الاضطرابات والارتباكات رأى جلالتهُ ان السكون لا يستتب وان النظام لا يحفظ وانهُ لا يأمن على ملكهِ ونفسهِ الاَّ اذا قبض بيدهِ القويَّة

على زمام كل الامور كبيرها وصغيرها وكان من سوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدي زمرة مختلفة الاجناس والانواع من نُزَّاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من الثقة بهم والركون اليهم رأوا ان اغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم الَّا بإشغال جلالتهِ بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شيء واختلاس اوقاتهِ الَّتي تحتاج اليها مصالح الدولة فتدرَّجوا الى ما ابتغوا — والتدريج قائد الافراط — حتى وصلوا الى ما لا تصدق ناقله' الَّا اذا قاسمك الايمان المغلظة عليهِ . وابعدوا عن سدَّتهِ كل صادق امين قادر بكفاءَتهِ على خدمة الدولة بوصفهِ بسرعة الحركة في الفكر وبسرعة الاقدام في العمل فتشتت اهل الفضائل الذين كانت الدولة تنتفع بهم في حل مشاكلها ولم يبقَ منهم الَّا من تغابى او تجاهل او افرط في اظهار الجبن حفظاً لوظيفتهِ او طمعاً في وظيفة يريد الحصول عليها او ابقاءً على وجودهِ في الاستانة

وحكاية واحدة في هذا الموضوع تدل على الكثير منهُ .

كان احد وكلاء الدولة مع صديق لهُ لخضر ابن صغير للوزير في السادسة من عمرهِ فوقف في حضرة والدهِ يسأَلهُ الاسئلة المخصوصة بهذا السن فضحك والدهُ وقال لصديقهِ ان كامل باشا ذلك الداهية الدهياء يسأَل السلطان احياناً اسئلة هذا الطفل

هذا حال الكفاة من رجال الحل والعقد في الدولة قد ذهب الموت والنفي والخوف بهم فلم يبقَ منهم احد يشار اليهِ . ثم نشأَ الناشئون في عشرين سنة على الجبن والخوف من التظاهر بحب الوطن حتَّى رفعوا من كتاباتهم في معروضاتهم وجرائدهم لفظ (الملة) فلا يقولون "لخدمة الدولة والملة" بل يقولون "لخدمة الذات الشاهانيَّة" وأُشربوا في قلوبهم التجسس فصار الابن يتجسس على ابيهِ والاخ على اخيهِ والزوجة على زوجها بما لم يسمع بتفاصيلهِ في تاريخ

وفي هذا الباب حكايات كثيرة مشهورة نذكر واحدة منها ونترك الباقي لمواضعهِ . ضاقت يوماً من الاَيام ذات

يد جميل باشا من الاخبار الّتي يعرضها على جلالة السلطان فجاءَ الى ابيهِ نامق باشا وهو شيخ الوزراء قدرًا وسنًّا وقال يا ابتِ ان اخي قد طال عليهِ النفي واولاده يبكون كل ليلة وانت المقرب الملحوظ بعين العناية السلطانية وان الناس بين متّهم لك بالعجز وهذا ما لا نرضاهُ لقدرك ومتّهم لك بالقسوة وهذا ما لا ترضاهُ لنفسك في طول سكوتك على تخليص ابنك فاطلب بعريضة تعرضها على اعتاب مولانا السلطان خلاص اخي . فاعتذر الرجل بان الحال لا يقضي بالعرض خوف القيل والقال . فما زال بهِ حتّى اخذ الرجل يكتب عريضة في هذا الامر . ولما تمت حيلتهُ على ابيهِ تركهُ وذهب فكتب الى جلالة السلطان عريضة يقول فيها ان ابي اصابهُ العتر والخرف وانا براءٌ ممَّا يريد عرضهُ من التماس الرضا عن ابنهِ المنفيّ

هل بعد هذا فساد في الاخلاق وهل يرجى مع جماعة هذا حالهم صلاح او نجاح للدولة الّتي سقطت من بين ايديهم ولما رأى الناشئون ان الرتب والوظائف لا تنال الاَّ

بالتجسس واظهار الجبن اخذوا يتسابقون حتَّى وصلوا الى
غايات يمجها السمع وينفر منها الطبع ويبكي لها العثماني الحر
بل ربما انتقل من البكاء الى الضحك طفرة . يقرأُ القارئُ
منهم الكتاب المطبوع في ذات الاستانة باذن الحكومة مرارًا
فيجد فيهِ جملة فيكتب تلك الجملة ويبني عليها خراب الدولة
فتصدر الاوامر بجمع الكتاب من الاقطار واحراقهِ كما فعلوا
في " الطريقة المحمديَّة " لسيدي عبد الغني النابلسي وفي
الف كتاب مثلهِ وذلك ان القارئَ وجد فيهِ قولهُ صلى
الله عليهِ وسلم " الائمة من قريش " فطار البرق ليلاً الى
جميع الولاة بجمع الكتاب من كل زاوية وركن واحراقهِ
بالنار ومحو اثرهِ . ولم يقف بهم الجبن الى هذا الحد بل
نقلهم الى الخوف من كتاب الله فلا يأْذنون لكتاب فيهِ
آية من آيات الجهاد او آية فيها " الذين كفروا " او ما
اشبه ذلك خوفًا ان تحاربهم اوربا على هذا . وقد بقيت
" العقائد النسفيَّة " اعوامًا تتردد بين المعارف والمشيخة
الاسلاميَّة بالكتابة الرسميَّة وكل جهة من هاتين الجهتين

تريد ان تتخلى من مسئوليَّة اعطاء الاذن بطبعها وتلقي على كاهل الاخرى عبء تلك المسئوليَّة وما امكن لاحداهما ان تخدع الاخرى في هذا فاتفقتا على حفظ الاوراق والسكوت عن اعطاء الاذن . كل هذا لان تلك العقائد فيها ذكر الامامة وشروط الخلافة ومنعوا الكتاب المسمى بالاحكام السلطانيَّة في الفقه الحنفي من الدخول الى الممالك العثمانيَّة لان فيهِ تلك الشروط ايضاً

وما تحرُّك الارمن حركاتهم تلك الَّا من جبن هؤلاء من جهة ومن ضغطهم عليهم من جهة أُخرى بسبب هذا التخوف والارمن ليسوا كما كانوا قديماً في الجهل بل اخذوا يتعلمون في المدارس الَّتي انشأَها لهم المرسلون الاميركيون في الاستانة وغيرها من البلاد العثمانيَّة حتى فاقوا مواطنيهم في العلم والمعارف لما قعد بهؤُلاء ما هم فيهِ من موت الافكار والهمم. فمن المضحكات ان عالمًا ارمنيًا الَّف قاموسًا بالتركيَّة والارمنيَّة وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاءَ الاذن بطبعهِ فلما وجد رجال الحكومة في القاموس كما يوجد في

غيره لفظة " السيف " مترجماً بالتركيّة والارمنيَّة امروا بمحو هذه اللفظة وقالوا لا يجوز ان يكون في قاموس ارمني لفظة " السيف " . فكيف يكون تأثير هذا التحكم البارد على قوم عرفوا الدنيا ودرسوا احوال العالم ونبغوا في المدارس الاميركيَّة . فان شك قارئ في صدق هذا — وله الحق ان يشك — فليسأل عن ذلك في دار الخلافة والسلطنة يجده حقًّا صدقاً وما نقلناه الآ ونحن واثقون باثباته

هذا حال الناشئين في السلطنة الذين اصبحوا الواسطة بين الرعيَّة وراعيها فان شذَّ بينهم ذو فضيلة اضطرته المخاوف ان يتراءى برذيلة تقابل تلك الفضيلة ليأمن على نفسه من شرورهم . وقد بلغ بهم الجبن انهم حظروا على الجرائد فوق الحظر على الافكار جملاً والفاظاً فلا تستطيع جريدة تذكر "جمهوريَّة اميركا" مثلاً فان اقتضى لها ذكرها قالت " مجتمعة اميركا " خشية ان لفظ الجمهوريَّة يقلب الحكومة في حال النطق بها . ولا تستطيع جريدة ان تكتب " ولي عهد روسيا " مثلاً خشية ان لفظ ولي العهد يحدث

انقلاباً في السلطنة. وسنأتي على كثير من مثل هذه النوادر عند الكلام على الجرائد ومديريّة المطبوعات

ولقد بالغوا في إشغال جلالة السلطان وقلب الحقائق لهُ حتَى صاروا يقدمون لجلالتهِ في اليوم ما ينيف على مائة وخمسين تقريرًا كلها كذب وافك . ومن العجيب ان الكاذب من هؤلاء الجواسيس اذا ثبت كذبهُ لا يعاقب رجاءَ ان يأتي مرة بصدق . ومن الحكايات العجيبة ان رجلاً من اهل المابين طلب في احدى الليالي ان يقابل جلالة السلطان لأمرٍ مهم يعرضهُ شفاهاً على سدَّتهِ فأُذن للرجل المعروف فقال لجلالة السلطان اني رأيت اليوم في بك اوغلي محمود باشا الداماد (وهو الذي نفي مع مَنْ نفي الى الطائف وكان قد مات) في صورة عبد اسود وهو يتكلم مع رجل اجنبي باللغة الانكليزيّة . فاستيقظ لهذا الخبر جميع مَنْ بالمابين وصار الليل نهارًا وبُعث بالبوليس والجواسيس الى انحاء الاستانة للبحث عن الباشا المصبوغ بصبغة العبد وأرسل بالتلغرافات الى والي الحجاز وشريف

مكة ليلاً للسؤال والبحث عن هذا الامر العظيم وجاءت التلغرافات بان الرجل مات ودُفن . وحضر البوليس والجواسيس بعد ان اقاموا القيامة في البحث والتنقيب يحقّقون انهُ ليس في الاستانة خيال لهذا الباشا المصبوغ وحقّقوا انهُ ما كان يعرف اللغة الانكليزيّة . فلم يقع على الكاذب الذي اقلق المابين والاستانة والحجاز ليلة ويوماً ادنى عتاب ولا لوم . ولم يذهب الشك عن السلطان الآن بحضور رأس محمود باشا الداماد من الطائف

وسنذكر احوال السلطنة بالتفصيل ليعذر الناس الحال الّتي عليها الامة العثمانيّة والسلطنة السنيّة في الوقت المشحون بالمشاكل والمعضلات وليطلبوا من الله ان يلهم جلالة السلطان ان يبعد عنهُ من اشغلوا اوقاتهُ وقلبوا الحقائق لهُ وان ينقذ الدولة سبحانهُ ممّا اصابها كما انقذوها من قبل . وانا لذاكرون المابين برجالهِ واحوالهم واطوارهم وعلاقاتهم ثم الباب العالي بصدرهِ ووزرائهِ وهلمّ جرّا الى آخر المأمورين بالحقائق الّتي لا يجرأ احد على تكذيبها ليعلم

الناس ان ما نكتبهُ عن الدولة صادر عن نفس حرَّة تريد بيان الفساد ليستبدل بالصلاح . "ان اريد الاَّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الاَّ بالله"

المقالة الثانية

المابين

هذه الكلمة تُطلَق في اللغة التركيَّة على الحجرة الَّتي لها بابان باب الى جهة الحرم وباب الى جهة الخدم ثم اختصت بالسراي السلطانيَّة. ولفظ السراي لا يطلق في الاستانة الاَّ على بيت السلطنة بخلاف ما نراهُ في مصر فان في العزب والكفور سرايات لعامة الناس . ولو اعتبرنا الاصطلاح الرسمي الجاري في الاستانة لم نطلق لفظ السراي الاَّ على عابدين او رأس التين بلا اضافة. وهذه السراي السلطانيَّة لها بابان كما في عابدين وفي راس التين باب خاص بجلالة السلطان وبالملوك وسفراء الدول عند مجيئهم رسميًا وبالعائلة

السلطانيَّة وباب عام للخاصة والعامة من الصدر الاعظم الى الحمَّال وعلى هذا الباب نفران من العساكر ببنادقهما للسلام.

وقبل الدخول نذكر حكاية ليعلم القارئ ان الشيء اذا بلغ الغاية في عظم القدر قلَّ الاعتناء بهِ . خرج رجل في شهر رمضان ليلاً من السراي ومعهُ احد كتبة المابين وشيخ من اكبر المشايخ فحانت من الرجل التفاتة عند خروجهِ فوجد احد مصراعي الباب مغلقاً ورآهُ مرقعاً بالخشب الابيض الجديد في وسط الخشب الاسود القديم فطرف هذا المنظر عينهُ فقال همساً للشيخ . انظر يا مولاي الى الباب. فاختلس الشيخ نظرة الى الباب ثم التفت الى صاحبهِ باسماً وقال ان كل شيء في هذه السراي مرقع حاشا جلالة مولانا السلطان ثم ما زال ينشد بيت ابي الطيب

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمامِ

حتَّى وصل الى بيتهِ . وقد نقل الناقل ان ذلك الشيخ كان ينشد بيت المتنبي باصوات مختلفة فمرةً كان ينشدهُ بصوت منخفض لا يكاد يسمع وتارة كان يرفع بهِ عقيرتهُ

ومرةً كان يصحبهُ بزفرات حتَّى يتخيل السامع ان الرجل كان يعرض على فكرهِ جميع المناظر الَّتي في حافظتهِ الواسعة فيعطي بلا احساس كل منظر ما يستحقهُ من النغمات الوجدانية

وبعد العتبة الَّتي يعبرون عنها بانها في مرتبة الفلك (عتبهٔ فلك مرتبهٔ) يجد الداخل عليها خمسة عشر من البوابين وعليهم ثياب لا تروق الناظرين. وبعد الباب حجرة لها اربع نوافذ وفيها كاتب منهم ومعهُ دفتر يكتب فيهِ اسم الداخل والخارج باملائهم لهُ من تلك النوافذ فاذا جاءَ عليهم مجهول سألوهُ عن اسمهِ وعمن يريد مقابلتهُ ثم يوقفونهُ ريثما يذهب احدهم فيسأل من يريد الرجل مقابلتهُ فان رضي بدخولهِ ادخلوهُ بعد ان يأخذوا ما معهُ من عصا او مظلة ويكتبوا اسمهُ واسم من دخل عندهُ ثم يقابلون في آخر اليوم اسماءَ الخارجين بالداخلين وبعدها يقدمون الدفتر الى مكلف غير دائم بقراءَتهِ فان رأى فيهِ غريباً عرض اسمهُ واسم من دخل عندهُ الى جلالة السلطان وجلالتهُ ينظر في الطريقة الَّتي يختارها من طرقهِ المختلفة

لاكتشاف حال الداخل والعلاقة مع مُدخلهِ

وفي ايام القلاقل والاضطرابات ألّتي لا تخلو السراي منها كثيرًا يقرأُ جلالة السلطان بنفسهِ ذلك الدفتر

وفي السراي دوائر منها دائرة الجيب الهمايوني . ودائرة الباشكاتب . ودائرة المابينجيَّة .ودائرة الباش اغا . وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (اي الجواسيس) ولكن لما عمَّ التجسس بطل ذلك الاختصاص

وقبل الكلام عن اهل السراي نورد كلام بعض علماء الاخلاق من الافرنج . قال . ليس في جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ما تجمعهُ كلمة كورتيزان (Courtisan) اي اهل البلاط والبطانة والحاشية.وقال في موضع آخر ان للكورتيزان ثلاث خواص من خواص المرمر فهو ثقيل بارد املس كغطاء القبر فلا يعدمهُ الملوك في الحياة ولا في الممات . وقال آخر منهم ان الكورتيزان كالنيران اللولبيَّة لا تقارب عند التهابها ولا ينتفع بها عند انطفائها

اما دائرة الجيب الهمايوني وهي على باب السراي

فتحتوي على رئيس وجملة من المترجمين وظيفتهم الاولى وظيفة غيرهم (من التجسس) ووظيفتهم الثانية ان يترجموا ما يأمر جلالة السلطان بترجمتهِ من الجرائد الاوربيَّة على اختلاف لغاتها وما يأمر خليفة النبي ان يترجموهُ لجلالتهِ من اللغة العربيَّة من الجرائد وغيرها . وهؤلاء المترجمون لا يذهبون الى مركز وظيفتهم لاعتماد بعضهم على بعض ولاعتمادهم في حفظ حالهم على ما ترجموهُ من كلام الجرائد وغيرها مما يوجب الدلائل او لاعتمادهم على ان لهم شغلاً شاغلاً من التجسس . وفي قدرتهم كافأهم الله بما يستحقون ان يخترعوا على عباد الله ما يجعل اهمالهم اعمالاً مفيدة تقترن بالشكر والاحسان . عند السلطان فلو دخل محلهم الواسع داخل وقد تفرق اكثرهم منهُ لوجدهُ بما بقي فيهِ من الاشخاص كرقعة الشطرنج في آخر اللعب . وكثيراً ما يطلب جلالة السلطان واحدًا منهم لترجمة ضروريَّة فلا يجدهُ فيبحث الباحثون في السراي عن مترجم يقضي الحاجة فلا يجدون . وقد اعوزهم البحث ليلة فلم يجدوا الاَّ كاتبًا صغيرًا

في زاوية من زوايا السراي فقدموهُ للحضرة الشاهانيَّة فاعجب جلالة السلطان فجعله ُ مابينجي وهو عارف بك المنتفخ الآن الذي يتملق لهُ سعيد باشا وكامل باشا وشيخ الاسلام وهو من عوامل السيد ابي الهدى. ولم ينل المكلفين بهذه الوظيفة المهمة على كثرتهم لوم او عتاب على اهمالهم . والحقيقة في هذا التسامح هي بعض الاجتماع ولوكان في المصالح الضروريَّة

وفي الجيب الهمايوني قاعة الضيافة للاجانب الذين يحضرون للتشرف برؤية الموكب السلطاني في صلاة الجمعة فيجتمع فيها احياناً ما ينيف على خمسين شخصاً من السفراء والامراء الاجنبيين بنسائهم واولادهم فينظرون مالم ترَ عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر من الزينة والجمال . لكنهم يأسفون ويحق لهم الاسف فان مدة الموكب قصيرة لان المسافة بين باب السراي وباب المسجد الحميدي لا تزيد عن خمسين متراً وفي هذه المسافة يرون الخيول العربيَّة بعساكرها الشاهانيَّة صفوفاً كالعرائس والرعيَّة على اختلافها وقوفاً والقواد والضباط بملابسهم الذهبيَّة ونياشينهم المجوهرة

حافّين حول المركبة المذهبة التي تحمل السكينة والوقار والمجد والفخار حتى يتخيل للرائي منهم انهُ يرى المركبة ومن احاط بها من هالة الضباط والقواد قبة من الذهب مرصعة بالجوهر فيرجع الاجانب وهم يحلفون انهم لم يروا ولم يسمعوا بان الله اعطى لاحد من ملوك الارض ولا لملك الصين من الزينة ما اعطاهُ لخليفة النبي الذي كان يخصف نعلهُ والذي كان يقول في دعائهِ عليهِ الصلاة والسلام " اللهمَّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مع المساكين "

وقد سأل بعض الانكليز امين بك المابينجي الذي يرسلهُ السلطان لتبليغ سلامهُ لهؤلاء الضيوف عن هذا الجيش الجرار وعن هؤلاء الاهالي الواقفين من غير صلاة في الوقت الذي وجبت عليهم فيهِ الصلاة " هل صلاة السلطان تكفي عن صلواتهم ". فانفلت امين بك منهُ بلطافة من غير ان يجاوبهُ . فترقى يومها الى رتبة البالا مكافأةً على حسن تخلصهِ. وسنأتي على الكلام في هذه المسألة المهمة في موضع آخر من رسائلنا

المقالة الثالثة

دائرة الباشكاتب في المابين

هذه الدائرة من اجل دوائر المابين قدرًا واهمها عملاً وهي تحتوي على الباشكاتب وعلى عشرين كاتباً معهُ من ذوي الرتب من الرتبة الثانية الى رتبة بالا ومعناها (الرتبة العليا) وعلى ذكر رتبة بالا نذكر ما تغلط فيهِ الجرائد المصريَّة كل يوم فانها تقول لصاحب رتبة روم ايلي بكاربكي او رتبة ميرميران عطوفتلو فلان باشا. ولفظ باشا لا يرد ابدًا مع عطوفتلو الاَّ في عنوانين مخصوصين السر عسكر ودامادِ جلالة السلطان (صهرهُ) فيقال دولتلو عطوفتلو فلان باشا اما صاحب تلك الرتبة فيقال لهُ عطوفتلو افندي او بك على حسب ما كان يطلق عليهِ قبلها وهي آخر الرتب القلميَّة وبعدها رتبة الوزارة فاذا ترقى صاحب رتبة روم ايلي بكاربكي اليها حذف رسميًّا في الحال من اسمهِ لفظة باشا ووضع مكانها افندي او بك. وكان يجب على الجرائد هنا

ان تتبع قانون التشريفات في الدولة مادامت هذه الرتبة منها ولا تغلط غلطتين في كلمة واحدة بالجمع بين لفظة الباشا والعطوفة. واهل الاستانة يضحكون اذا رأوا في جرائد مصر هذا الغلط لان جرائدهم لا تزيد حرفاً ولا تنقص حرفاً في امور رسميَّة تحت قانون مخصوص يجازى مخالفهُ

والكتبة المذكورون آنفاً هم من الشبَّان الناشئين على الاخلاق الجديدة وكلهم عيون على الباشكاتب حَتَّى

كأن عليهِ من حدقٍ نطاقا

وهو عين عليهم وقد باعد بينهم الشقاق فتراهم جميعاً وقلوبهم شتى . ومن عوائد السراي ان يكون الباشكاتب ذا لحية لوقار منصبهِ وجلال وظيفتهِ ولانهُ الواسطة العظمى بين جلالة السلطان والحكومة بصدرها وشيخ اسلامها كما ان من تلك العوائد أن يكون المابينجي بغير لحية . ولم تنقضِ هذه العادة في الباشكاتب الى اليوم وان كان انتقض فيهِ غيرها وانتقضت في المابينجي . وقد تحوَّل في السابق من وظيفة الباشكتابة رجل الى وظيفة المابينجيَّة فحلق لحيتهُ

بحكم العادة. ومن العوائد ايضاً ان يكون الباشكاتب خارجاً من الباب العالي متقلباً في فنون الكتابة التركيَّة والفارسيَّة (دون العربيَّة) مشهورًا بالبلاغة فيهما للزوم ذلك لوظيفةٍ هي اللسان الناطق عن السلطنة واليد الكاتبة عن الخلافة وقد بقيت هذه العادة جارية الى الباشكاتب الماضي الذي مات فجأة. اما تحسين بك الباشكاتب الحالي فلم يكن من كتبة الباب العالي ولا من المشهورين في فن من فنون الكتابة بل ينزلهُ من معهُ من الكتاب الى درجة من يغلط في رسم الحروف وهو في الثلاثين من العمر وكان مكتوبجي في نظارة البحريَّة مع حسن باشا ناظرها الذي حفظت لهُ امانتهُ كرسيهُ في كل وزارة تألفت مدة اثنتي عشرة سنة. اما ماخالف بالباشكاتب في تلك العوائد الَّتي تقتضيها وظيفتهُ ورقاهُ الى هذا المنصب الجليل على مشهد من المترشحين لهُ فهو اعتماد ناظر البحريَّة عليهِ في حفظ الاسرار العميقة وكونهُ صهرًا لمحمود نديم باشا سيد لطفي اغا (هرقل المابين) فرفعتهُ الثقة بشهادة لطفي اغا فيهِ الى هذا المنصب العالي

الذي تفانت قروم الرجال عليهِ وتقلدهُ سعيد باشا الصدر الاعظم ببلاغتهِ وسعة علمهِ وهو اول منْ نال رتبة الوزارة في تلك الوظيفة الّتي كانت قاصرة مِنْ قبلهِ على رتبة بالا

وعلى الباشكاتب ترد جميع الاوراق الرسميَّة من الباب العالي ومِن المشيخة الاسلاميَّة ومِنْ سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنهُ الى الباب العالي وجميع الجهات وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانيَّة فيتلقى عنها الارادات بتبليغ المابينجية او منْ يأمرهُ جلالة السلطان بالتبليغ من الذين في الحضرة الشاهانيَّة . والباشكاتب يبعث بالارادات السنيَّة بامضائهِ في اوراق صغيرة الى الصدر الاعظم او الى من تخصهم من الوكلاء والوزراء

واغوثاهُ لقد كانت ورقة من هذه الاوراق تنشر القانون الأساسي وتجمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التداخل الاجنبي وترفع شأن العثمانيين . ولكن وا حسرتاهُ يصدر اليوم عشرات منها في النهار لتفتيش بيت زيد او استنطاق عمرو او ابعاد خالد او سجن بكر

وحين يستلم الصدر الاعظم او غيرهُ تلك الارادات يكتب على ورقة مع المرسل بها ساعة الاستلام والدقيقة. ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيهِ المبلغ للارادة صورتها ودقيقة صدورها ويمضي ما يكتبهُ بامضائهِ

وهذه عادة جديدة لم تكن مِنْ قبل احدثها ارتكاب بعض المبلغين تبليغ ارادات لا اصل لها

ومِنْ كثرة ما يعتري الارادات السنيَّة من التغيير والتبديل اضطرَّ الباشكاتب ان يرجئها ريثما ينقطع شكهُ في النقض والابرام. وهذا ناشيءٌ مِنْ تحاسد الحاشية ومواراة بعضهم لبعض فما ابرمهُ منهم زيد ينقضهُ عمرو. وربما زال الخطأُ وثبت الصواب عفوًا من تخالفهم ونقضهم مساعي بعضهم لبعض. فاذا التمس احدهم مثلاً نشانًا او رتبة لمن لا يستحق وصدرت الارادة مِنْ حاتم النياشين والرتب جاءَ الآخر فبين لجلالة السلطان غش صاحبهِ فتصدر الارادة بالغاء الارادة الاولى. واذا صدرت لمستحق جاءَ ذو الغرض فروَّج بفتنة يخترعها ما لا يريد حصولهُ فتقف ارادة السلطان

على ما يريد وفي بعض الاحيان تخفى الارادة بالكلية. وقد تمادى بعضهم في الغش ورمى بشرف الدولة مبعدًا اذ استحصل مِنْ جلالة السلطان على ارادات بنياشين الشفقة لنساءٍ لاتسمح الآداب ان يمسسنها . ولما تبين الامر اقتضت الاحوال استرداد تلك النياشين فردت الى الدولة بعد ما دفعت خمسين جنيهاً الى كلٍّ منهنَّ استرضاءً لهنَّ

وهنا نذكر حكاية وقعت قريباً . امر جلالة السلطان بالاحسان على حسن بك صيادي ابن الشيخ ابي الهدى (احد الشيوخ المقربين) بالنشان الثالث المجيدي ثم تلا ارادة الاحسان ارادة الارجاء فذهب الشاب الى الباشكاتب وقال لهُ لست ممن تردُّ ارادة نشانهِ وانما تردُّ ارادة فلانة وفلانة يعني النساء المذكورات . فلم يخرج من السراي الاَّ والنشان في جيبهِ

والباشكاتب ركن عظيم مِنْ اركان الجواسيس في السراي وهو يعرض فوق وظيفتهِ الرسميَّة العليا اوراق الخفيات التي ترد عليهِ منهم . ولها النصيب الاوفر مِنْ

عنايتهِ واهتمامهِ فلا تلبث في يدهِ الَّا ريثما يتناولها فيبعث بها الى الحضرة الشاهانيَّة فتذهب اسرع من منحدر سائل فيتلقى عنها الارادة في الحال سواءٌ كانت ارادة استنطاق او استيضاح او التفات او احسان على من قدمها بخلاف الاوراق الرسميَّة او اوراق ذوي الحاجات فان لها طريقاً في العرض لا يتغير وربما تأَخرت شهورًا او جاءَ عليها تيَّار الاوراق الاخرى فلا ينفع البحث عنها ولا يجدي لو كان اليهِ سبيل

والباشكاتب يبقى في شغلهِ الى الليل في السراي ويترك من يقوم عنهُ لقيد الارادات الصادرة ليلاً . ويستأْذن عليهِ ذوو الحاجات فيأْذن لهم ويلاقيهم بالبشر ويردهم باللطف بخلاف ما نراهُ في مصر وفي الولايات العثمانيَّة من أَصغر المأْمورين من العبوس في المقابلة والعنف في الرد . اما كبار الموظفين منا ومن حكام الولايات فاولئك جذيمة الابرش من حجابهم واذا سلم عليك احدهم فكانما وهبك الحياة او احسن عليك بالاقاليم

ويلبس الباشكاتب مع بعض الكتّاب الملابس الرسمية لحضور صلاة الجمعة المسماة (بالسلاملك) فيقف مع الواقفين حتّى يشرف جلالة السلطان بموكبهِ الحافل

المقالة الرابعة

دائرة المابينجيَّة في المابين

يحار الكاتب اذا همَّ بوصف هؤلاء النفر وكان في عزمهِ ان يصف حضرات المشايخ اساطين القصر السلطاني بعدهم فانهُ لا يجد لهم في الوصف الاَّ ألفاظًا مكرَّرة تضطرهُ ان يقول ان الشيخ هو المابينجي وان المابينجي هو الشيخ الاَّ ان الشيخ في بعض الامور يزيد

ما سارٍ رمى بهِ الليل وحيدًا في غابة التفت اشجارها وتكاثفت ظلماؤها وتجاوبت رياحها وعزفت جنّانها وزأرت اسودها وترامت على اقدامهِ افاعيها وسودها لا يهتدى لطريق يسلكهُ ولا يجد موتًا وحيًا يهلكهُ بأخوف ممن يطأُ

هذه الدائرة لشرّهم المطلق في الناس وخيرهم المقيد لانفسهم بوقوفهم على باب فيهِ النعم والنقم والعز والذل والحريَّة والاستعباد والشورى والاستبداد والسعادة والشقاء والحياة والفناء لدى خليفةٍ عظيم وسلطان كبير

لهُ لحظات في حفافي سريرهِ   اذا كرّها فيها عقاب ونائلُ

ولانتظارهم حيث يضعون كلمة السوء موضعها لمكانهم مِنْ وجه جلالة السلطان في اصابة الغرض لوقتهِ بخلاف من يروم قضاءَ حاجتهِ بالكتابة والعرض ولو كان الصدر الاعظم او شيخ الاسلام فانهُ لا يعلم في اي شأن يكون جلالة السلطان حين يقرأُ معروضهُ . وهذا هو السبب القوي في اخفاق الناس في حاجاتهم ونجاح هؤلاء في اغراضهم. وهم القابضون على الارواح والاموال والاعراض في ما بقي للدولة في الآفاق مِنْ يلدز الى العراق المتصرفون فيها بما ارادوا فلا يسكن لصدر خفقان الاَّ اذا اتصل بسبب مِنْ خدمة لهم يخدمها وطاعة لاوامرهم يظهرها ومظلمة لاجلهم يحتملها وخيانة لمولاهُ في هواهم يرتكبها لا يفوتهم علم بشيء

ممّا يجنهُ الضمير الاعلى لذكائهم المفرط ولطول ممارستهم لخدمة الحضرة السنيّة فكل شيء مكشوف لهم . وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج علي بك وهم من ذوي الرتب العالية ويقدر العارفون ثروة احدهم راغب بك بثمانمائة الف جنيه وكان فقيرًا لا يملك نقيرًا ايام كان يؤويهِ بيت منيف باشا قبل أن يوصلهُ الى الخدمة السلطانية . وهو يوناني الاصل ولهُ وظيفة اخرى غير المابينجيَّة وهي استنطاق المأمورين كما ان مِنْ وظائف الشيخ ابي الهدى استنطاق العلماء وهما يتعاوران ملاءة الفخر في الوقوف على الاسرار السلطانيَّة الَّا ان الشيخ ابا الهدى ترفع عن كسب المال لطلب المجد المؤثل كما قال رصيفهُ امرءُ القيس

ولو انَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ
كفاني ولم أطلب قليلٌ من المالِ
ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثلٍ
وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وراغب بك قد سبق الجميع في شهرة الاستنطاق على

ثور "فالاريس" (١) كما ان الشيخ ابا الهدى وضع الجميع في تنور ابن الزيَّات (٢) بمهارتهِ وتدقيقهِ

(١) فالاريس طاغية حكم في صقلية قبل الميلاد بنحو ستمئة سنة ويضرب بهِ المثل في الظلم والقسوة حتى لقبهُ شيشرون بطاغية الطغاة ورجمتهُ رعيتهُ بالاحجار فقتلتهُ كفًّا لشرهِ وتخلصاً من قسوتهِ . ويروي ان صانعاً ماهراً اسمهُ بارلس صنع ثوراً لهُ من نحاس يحمي بالنار ويعذب الناس في جوفهِ حتى يموتوا وهو يطرب بسماع انينهم فكان اول من جرب الثور فيهِ بارلس صانعهُ

(٢) ابن الزيات وزير المعتصم روي انهُ اتخذ في ايام وزارتهِ تنوراً من حديد واطراف مساميرهِ محدودة الى داخل وهي قائمة مثل رؤُوس المسال . وكان يعذب فيهِ المصادرين وارباب الدواوين المطلوبين بالاموال . فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمهِ فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقهُ احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال لهُ احد منهم ايها الوزير ارحمني فيقول لهُ الرحمة خورٌ في الطبيعة فلما اعتقلهُ المتوكل امر بادخالهِ في التنور وقيدهُ بخمسة وسبعين رطلاً (مصريًّا) من الحديد . فقال يا امير المؤْمنين ارحمني فقال لهُ الرحمة خورٌ في الطبيعة كما كان يقول للناس فطلب دواة وبطاقة فاحضرتا اليهِ فكتب

هي السبيلُ فمن يومٍ الى يومٍ ... كانهُ ما تريكَ العينُ في النومِ
لا تجزعنَّ رويداً انها دولٌ ... دنيا تنقلُ من قومٍ الى قومِ

وكانت العادة القديمة ان المابينجية لا يذهبون الى بيوتهم الاَّ نادرًا اما الآن فهم يتناوبون في الخدمة فيجلس من عليهِ النوبة على باب الحجرة المشرفة بالجلوس السلطاني للطلب فيبلغ الارادات السنيَّة كما ذكرنا آنفا. وللحاج علي بك الباشمابينجي حجرة واسعة يجلس فيها وحدهُ فيرد عليهِ الوافدون الى السراي من جميع الاجناس فيصرفهم على ما تقتضيهِ مقاماتهم ومنازلهم بعد ما يبلغ عنهم الحضرة السنيَّة ويبلغهم عنها ما يقتضي تبليغهُ. ولهُ اطوار متعددة ومظاهر متغيرة متجددة بين جاسوس متقنع وناسك متصنع وطامع متمنع واذا خاطبتهُ في ما خرج عن اشغال السراي وجدتهُ عاميًّا عريقًا في العاميَّة اميًّا وان كان يخط بعض الحروف فهي لا تؤدي معنى وربما اجتمع على سطر يكتبهُ ثلاثة او اربعة من الكتاب فلا يكشفون قصدهُ الاَّ بالحدس والتخمين

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الاَّ في الغد. فلما قراها امر باخراجهِ فجاءُوا اليهِ فوجدوهُ ميتًا وذلك في سنة ٢٣٣ هجرية. وكانت مدة اقامتهِ في التنور اربعين يومًا

لكنهُ في اشغال السراي ابن بجدتها وسادن سدتها . ولهُ معمل صناعة كما كان لسلفهِ مطبعة عثمانيَّة وطريقتهُ كيلانيَّة ولا ينفك يتكلم عن الطرق وتفضيل بعضها على بعض حتَّى اضاع على جلالة السلطان اوقاتاً غالية القيمة في التنازع والتشاجر مع الشيخ ابي الهدى في الطريقة الرفاعيَّة والطريقة الكيلانيَّة حتَّى اصبح بيت السلطنة ومرجع السياسة الأوربيَّة كاحدى التكايا المنشقة بالخلاف بين الفقراء

وهو غرس يمين السيد اسعد وكيل الفراشة النبويَّة اوصلهُ الى جلالة السلطان بالمدح فيهِ والثناء عليهِ حتَّى صار ثاني مابينجي في باشمابينجيَّة عثمان بك. وقد اتفق ذات يوم مع السيد اسعد على اسقاط عثمان بك فدخل السيد على جلالة السلطان في اليوم الثاني من صدارة احمد وفيق باشا مضطرباً يقول : يا افندينا ان عثمان بك مع الصدر وبعض الوكلاء يكتبون ورقة في السر في حجرة عثمان بك بخلع جلالتك بناءً على فتوى من عرياني زاده شيخ الاسلام . فأمر جلالة السلطان في الحال باحضار عثمان

بك تحت حراب البنادق ولما حضر على هذه الصورة امام جلالتهِ امر بتفتيشهِ لاخراج الورقة ففتشوهُ فلم يجدوا معهُ شيئًا والسيد اسعد يقول لهُ (چيقار) اي (أَخرِجْ) — كبخيل موليير الذي تهم خادمهُ باخفاء شيءٍ سرقهُ وبعد ان امعن في تفتيشهِ ولم يجد معهُ شيئًا قال لهُ اخرج ما معك — وقد ارتاب جلالة السلطان في عثمان بك وان لم يظهر عليهِ شيءٌ وعزلت الوزارة بعد يوم وليلة من تأْليفها. وسناتي على ذكر هذه الفتوى وعلى تلفيقها في موضعهِ

المقالة الخامسة

دائرة الباش اغا او قزلر اغاسي في المابين

يجب على كل مصريّ ذي مروءة يتنعم على فراش الحريّة الوثير ان يتوجع وهو في سعة غنائهِ ودعة هنائهِ ومجتمع امنهِ وامانهِ ومبتسم دهرهِ وزمانهِ على اخيهِ العثماني المتململ على سيال البلوى وقتاد الضراء بين ظفر الظلم ونابهِ فيطلب

من الله ان يخلص اخاهُ مما هو فيهِ وان يخفف عنهُ ما اطال يومهُ واطار نومهُ وان يعيد على دولة آل عثمان رونقها الأسنى ويقيم لها منارها الاعلى ويبعد عنها قوماً يظهرون لحكامها ما لا يضمرون ويمدحونهم في الملاءِ وفي نجواهم يقدحون . قد والله فدح الخطب واشتدَّت الازمة وضاق الخناق وتقابلت حلقات الوثاق وتعدى على عرين الدولة ضباع من جيرانها وتحكم عليها قوم كانوا من عبدانها فهي تعاملهم لطفاً ويعاملونها عنفاً . ياحسرتاهُ على قوم وضعتهم بسالتهم وسيوفهم في حدقة اوربا فأصبحوا اليوم

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرةً ومن اساءة اهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيتهِ سواهمُ من جميع الناس انسانا
فليت لي بهم قوماً اذا ركبوا شنوا الاغارة فرساناً وركبانا

اين القادة الذين فتحوا الممالك بمفاتيح السيوف ووضعوا على اعدائهم اقفال الصغار والهوان . واين الساسة الذين ضبطوا تلك الممالك بحكمتهم ودهائهم . تقاسمهم الموت والنفي وخلف من بعدهم خلف اضاعوا ما اورثهم آباؤهم من الشهامة

والبسالة فأَصبح العسكري الذي سلم روحهُ للدولة لتحفظها
عندها لوقت الحاجة اليها فتصرفها في غير ما يعلم سببهُ
وموجبهُ يرى ان الموت الاحمر الذي ينتظرهُ في خدمتها
والشظف الذي يقاسيهِ في حبها والاخطار الّتي يعانيها في
ولائها لا تبلغ بهِ في نيل ما يسليهِ عن روحهِ المودوعة عند
الدولة ما تبلغهُ قُبلة في رجل خصيّ من انواع الترقي
والشرف والسعادة والترف

دخل زكي باشا الذي تقول الجرائد الاوربيَّة اليوم
عنهُ ان المسأَلة الارمنيَّة من صنع يدهِ على المرحوم بهرام
آغا في مجلس حافل بالوزراء والكبراء حين ارادت
الدولة ان تبعثهُ قائدًا على عساكرها في طرابلس الغرب
فوقف بين يدي الاغا وقال : يا مولاي ان الدولة عينت
عبدكم قائدًا على عساكرها في طرابلس الغرب ولي أُمنيَّة
أَلتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لي حرزًا من ريب الدهر
وهي تقبيل يدكم الشريفة . فقهقه الاغا وقال لهُ : متى وصل
قدركم ان يتعدى رجلي الى يدي

لا يظن عاقل ان هذه الكلمة في هذا المحفل لهذا المشير من هذا الخصي يندمل جرحها فانهُ يبعد على مثلهِ من اصحاب السيف ان لا يحس بوخزها كلما رأى شيئاً اسود

لو قام من القبر راشد باشا الصدر الاعظم وصاحباه عالي باشا وفؤاد باشا وسألوا رجلاً في طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم : قد انفصلت رومانيا واستقلَّ الصرب وزال الجبل الاسود وذهب الروم ايلي الشرقي وانفصمت البلغار وضاعت قبرص وبانت تونس وانسلخت بوسنه وهرسك وانقطعت باطوم وخرجت قارص واردهان وانحلت تساليا ووقعت زيلع وطاحت مصوع وتُرك السودان وهذه مصر في ايدي الانكليز — هذا قسم ضاع وانتهى فيهِ النزاع — وسوريَّة ترصدها فرنسا وطرابلس الغرب ترمقها ايطاليا ومقدونية تشير اليها البلغار وقوصوه ترقبها السرب ويانيا وكريد ومنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان وولايات ارمينية تطلب الاستقلال او الاصلاح — وهذا

القسم في النزع — والبصرة وبغداد تشيع اهلهما بسعي حكومة
ايران واليمن في العصيان والمسلمون في خوف على الحجاز
ولم يبقَ الاَّ حلب وادرنه وازمير وبورسه خالصة لجلالة
السلطان . وسفن الدولة قد اكلها الصدأُ في قرن الذهب
بعناية حسن باشا واسرارهُ العميقة وسفن الانكليز على
شواطئ البلاد العثمانيَّة والناس يشتكون من اغتصاب
المأمورين لاراضيهم وادخالها في الاراضي السنيَّة والجفالك
السلطانيَّة ولا ميزانيَّة للماليَّة ولا نظام في العدليَّة ولا شغل
في الباب العالي يحسن السكوت عليهِ وصار مجلس الوكلاء
بعدكم تتلاكم فيهِ الوزراء والعساكر في الولايات قد عجز
القلم عن وصفهم ووصف اسمالهم واطمارهم البالية وسلَّم القلم
الامر في وصفهم الى الفوتوغرافيا

واصبح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهَّالهم سادوا

وقالوا لهُ بعد ان اغرورقت عيونهم بالدمع هذه كفة
الخسران فهل في كفة الربح شيءٌ يذكر . فاذا قال لهم بناء

سبعين تكيّة وتصليح عشرين مسجدًا وزيارة امبراطور المانيا للاستانة واحياء اسم الخلافة بعد ان كانت مهملة لا يتلقب بها سلاطين آل عثمان وزيادة الالقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا سلمنا بان هذه محسنات لا تنكر ولكن لايوزن الجندل بالخردل. ولعادوا مهرولين الى قبورهم ينشدون

يا ويلنا أَفما لنا من صارخٍ　　الاَّ بثغرٍ ضاع او دينٍ عفا

فمدينة من بعد اخرى تُستبى　　وطريقة في إثر اخرى تعتفى

ها مصر قد اودت واودى اهلها　　الاَّ قليلاً والحجاز على شفا

كيف يسمع هذه الحقائق مسلم ويبيت طاوي الكشح على سترها وسترها هو الذي جرَّ الى هذا الدمار. ولو كان مأمورو الدولة تركوا كاشفيها ومنتقديها على حالهم ما وصل الامر الى هذا ولكنهم وضعوا العيون والارصاد على كل ذي لسان وقلم فجذبوهُ اليهم واحتالوا على اسكاتهِ بالطرق الظاهرة والباطنة لكيلا تصل مساوئهم الى الخليفة الذي يسأَلهُ الله والقرآن ومحمد وامتهُ عن حفظ بيضة الاسلام

الذي يطلب من الخليفة ان يحفظها بنفسهِ لا ان يجعل الاسلام والمسلمين وقاية لهُ كما يبغيهِ الخائنون باعمالهم واقوالهم ان الانسان يساعد بنفسهِ المتملق على غشهِ . واعجب العجب ان المنتقد يساعد على غش نفسهِ بنفسهِ لو وجد لهُ مادحاً ومقرظاً على كلامهِ وينسيهِ حب ذاتهِ انهُ يثبت ما وقع فيهِ فينتشر على ديباجة وجههِ طبقة من البشر . فما قولك في جاهل لا يسمع قائماً او قاعداً او راقداً الاَّ الثناء عليهِ وعلى اعمالهِ والتبجيل لهُ ولجميع ما يصدر عنهُ فتنتفخ اوداجهُ كبراً وجبروتاً ويرى غيرهُ منهُ ما لا يرى . فمن ذلك ان امبراطور المانيا ارسل لجلالة السلطان نشان النسر الاسود مع برنس الماني فأنزلهُ جلالتهُ ضيفاً في السراي وقيل لبهرام آغا ان اللائق ان تذهب لزيارتهِ فقال كيف ازورهُ وانا ألتس وهو ألتس (Altesse) فليضحك الضاحكون على صاحب المتنبي الذي قال فيهِ

ويذكرني تخييط كعبك شقهُ ومشيك في ثوبٍ من الزيت عاريا

انما وصلنا الى تهديد اليونان ودلال البلغار بهذا وامثالهِ

وممَّا يذكر مِنْ نوادر الاغا انهُ خرج الى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروس فيهِ الى سان استفانوس وهو الوقت الذي كان فيهِ الفزع الاكبر وجلالة السلطان مهتم لما يؤُول اليهِ التخت العثماني الذي اودعهُ اياهُ اجدادهُ وآباؤُهُ العظام فدخل الاغا على جلالتهِ وقال لهُ لا يهتم مولانا الاعظم فقد خرجت الى ظاهر السراي ونظرت يميناً وشمالاً فوجدت جميع ما انتهى اليهِ بصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فانهُ يكفينا . تَعس العبد كانهُ يظن ان المقصود من الخلافة والسلطنة هو ما يقوم بمعيشة جلالة السلطان ومعيشتهِ

أَتريد ايها القارئ ان تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة . ارادت الدولة ان تقبض على مدحت باشا وهو والٍ على ازمير فهرب الى قنصل فرنسا فطلبتهُ الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمهِ

وانتهت المسأَلة بين الدولتين بعد المخابرات على ان فرنسا تسلمهُ بالشمال وتستلم تونس باليمين وتم الامر واشترت

الدولة رجلاً واحدًا بمملكة . فما اغلى قيمة الرجال عندها .
ولما قرب الفرنسويون من تونس صاح الباي وبعث
بالرسائل والرسل يستنجد الدولة فما اصغى اليهِ مصغٍ .
وبعث مصطفى ابن اسمعيل وزير تونس وهو الآن في
الاستانة الى المرحوم بهرام اغا عن لسان الصادق باي
والي تونس بالاستنجاد والاستغاثة وبعث بالهدايا فقبل
الاغا الهدايا ولم يجب بكلمة نافعة في المقصود

فسد الامر كلهُ فاتركوا الاعـــراب ان الفصاحة اليوم لحنُ
بئست الأمّ أُمنا هذه الدنـــيا وبئس البنون للأُمّ نحنُ

وما زال بهرام لهُ النظر الاعلى في طوالع النفوس
والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس يحكم ولا معقب لحكمهِ
ويأمر ولا رادّ لامرهِ ويشمخ بانفهِ على الفحول اصحاب
السيف والعلَم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول
واولاد البتول فيمد رجلهُ في وجوهٍ كرَّمها الله لتقبيلها ولا
يردعهُ رادع الايمان ولا يزعهُ وازع القرآن ان يقف عند
حدهِ مع اهل بيت نزل الكتاب عليهم وفيهم . قال الله

تعالى قل " لا اسأَلكم عليهِ اجرًا الاَّ المودة في القربى "
وقال سبحانهُ " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل
البيت ويطهركم تطهيرًا " ولا يخجل ان يفعل هذا المنكر في
بيت الخليفة على مرأًى من الادنى والاعلى ومسمع من قوم
يشك في صدقهم المسلم اذا ادعوا بعدها حب المصطفى صلى
الله عليهِ وسلم واحترام آل بيتهِ. وما زال يلعب لعب الوليد
في عظائم الامور ويعبث عبث الجاهل في شؤُون الجمهور
ومصر مِن بينها في فصوص لعبهِ وكعوب ددهِ مع الشيوخ
يأخذها مرة ويرميها اخرى فتكون لهُ طورًا وطورًا
تكون من نصيب ملاعبهِ بها حَتَّى سقطت من بين ايديهم
ومضي الآغا لسبيلهِ وتركهم يفتشون عليها من بعدهِ . وهو
المشير بان لا ترسل الدولة الى مصر الجنود الشاهانيَّة حين
طلب الانكليز من الدولة ارسالها اليها بدعوى ان ذلك
ربما استدعى تقليل العساكر الذين يحافظون على سراي يلدز
ولم يعلم الآغا ان الدولة العثمانيَّة لا ينقصها عسكر وجنود
والذي حملهُ على هذا القول الذي لا يصدر عن طفل هو

اظهار التفاني في المحافظة على جلالة السلطان ليزيد بهِ نفوذًا

ولما مات تولى وظيفتهُ شرف الدين آغا فأراد ان يقف في موقفهِ ويمد يدهُ في الامور الى حيث مدها سلفهُ فزلت بهِ قدمهُ بما حصل في السراي مِن بعض الاضطرابات الداخليَّة الَّتي انكشفت غياهبها عن عزلهِ ونفيهِ الى الحرم الشريف

يستغيث القلم ان يكتب هذا الفصل وهو ان العادة جرت من زمن قريب ان المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون الى الحرمين الشريفين فيبعث بهم ثبأ ثبأ وفرادى فرادى مغضوبا عليهم من بيت السلطان الى بيت الرحمن

ولم يبال المشيرون على جلالة السلطان بهذا انهم يأتون امرًا يكرههُ الله والنبي والمسلمون وانهم يبعثون بقوم لا يخلو الحال ان يكون فيهم مظلوم الى بقعة هي أقرب البقاع الى اجابة الدعاء . قال الله تعالى "وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل ان طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود" أيعطف المنفيون على هؤلاء رحماك اللهمَّ ان جعل

هذه البقاع الطاهرة المباركة مكاناً للنفي على المغضوب عليهم مما لا يطاق حمله

ثم تولى هذه الوظيفة بعد شرف الدين اغا ياور اغا الموجود الآن وهو يجاوز التسعين من العمر وليس له تداخل في الامور السياسيّة وانما يميل بطبعهِ الى الطرب والمضحكات فيأتي الى حجرتهِ من يتقرب اليهِ باضحاكهِ من موظفي المابين وخدمهِ فيرى فيهم احياناً راغب بك المشهور بالثروة والغنى يتزلف اليهِ بالسخريّة ولم يبقَ لهُ من الادراك ما يطمع بهِ ان يتداخل في تدبير الشؤون وهو يتخوف على نفسهِ من الدسائس ان تلحقهُ بالحرم النبوي فهو يستغيث لكل من دخل عندهُ واراد توسطهُ في شيء بانهُ على أهبة السفر اذا وشى واشٍ بهِ ولا يطمع في شيء من مال الدولة عند الرحيل خلاف ما على جسدهِ من اللباس وما في اصبعهِ من الخواتيم وما في يدهِ من السُّبح الّتي يقدّرها المقدّرون بثلاثين الف ليرة

ومن جماعة الخصيان طائفة المصاحبين وهم كالمابينجيّة

يبلغون الارادات السنيَّة ولفظة مصاحب تماثل لفظة قرناء
الّتي يطلقونها على المابينجي وفي اللغة التركيَّة يستعملون
احياناً الجمع العربي للمفرد فاذا ارادوا جمعهُ اضافوا عليهِ
علامة الجمع التركيَّة وفي المابين السلطاني يعادل المابينجي
المصاحب في جنس الخدمة ويختلفان في بابها وقد يعطى
لقب مصاحب لغير الخصيان كما أُعطي الى لطفي اغا التتنجي
الثاني للحضرة السلطانيَّة . وكان خادماً لمحمود نديم باشا
تربى في حجرهِ وشرب من شرعة خبثهِ ومكرهِ وللمصاحبين
رئيس هو باش مصاحب واسمهُ جوهر اغا والمصاحب الثاني
هو مظفر اغا والثالث عبد الغني اغا وهلمَّ جرًّا ولكل خصي
من هؤلاء الخصيان طريقة من الطرق كالشاذليَّة والرفاعيَّة
والقادريَّة وينقادون لمشايخها اكثر من انقيادهم لائمة المذاهب
اما جوهر اغا باش مصاحب فوظيفتهُ اهم وظيفة في
السراي وهي مراقبة سراي چراغان

هنا يقف القلم برهةً ليجد منفذاً يدخل منهُ هذه
السراي الّتي هي احدى المعميات الّتي لا يكشف معماها

حدسٌ ولا تخمين ولا يبلغ مكنونها فكر وليس في وسعنا
الاَّ ان نذكر اختلاف اقوال الناس من العثمانيين والاجانب
فيها. فطائفة من الاوربيين ينكرون وجود السلطان مراد
فيها ويقولون انهُ قد قضى نحبهُ بعد خلعهِ بزمن قليل
ويعتبرون ما يجري من شديد المراقبة وامعان التحرز والمحافظة
على السراي ايهاماً بوجودهِ. وطائفة من العثمانيين يعتقدون
وجودهُ فيها وربما نقل صديقٌ منهم لصديقهِ بعض الاشياء
عنهُ كقولهم ان السلطان المخلوع كثير الاطراق من الفكر
على حال السلطنة دائم القبض على لحيتهِ حتَّى خف شعرها.
وطائفة من العثمانيين والاجانب واقفون موقف الشك
والحيرة يترددون في الامر فيستبعدون تارةً ان يعيش
مريض بالجنون عشرين سنة فيميلون بعض الميل الى التصديق
بوفاتهِ وينسبون كتمانها الى التفادي من اشتغال الناس
باعضاء الارث العثماني ويجنحون تارةً الى القول بوجودهِ
في صحة تامة. وقصارى الامر ان الحقيقة مجهولة للناس
ووظيفة الباش مصاحب المشهورة هي المراقبة الدقيقة على

جميع ما يصدر عن السلطان مراد من الاقوال والافعال والحركات فلا يغادر الاغا كبيرة ولا صغيرة الاّ احصاها بعيونهِ وارصادهِ من الخدم والحرم في تقرير يقدمهُ صباح كل يوم لجلالة السلطان

اما وظيفة حسن باشا محافظ بشكطاش فهي المراقبة على السراي من الخارج وعلى من بها من العساكر والضباط والخدام . وسراي چراغان هذه من اكبر سرايات السلطنة وهي على البوسفور بين اسكلة بشكطاش واسكلة اورته كوى وعلى الجادة . وقد افرط المفرطون في المراقبة والمحافظة عليها بحيث ان وابورات الشركة الخيريّة الّتي تمرُّ في البوغاز اذا حاذتها رسمت في سيرها قوساً على السراي للبعد عنها ولو كان في هذا خطر عليها باشتداد الريح واضطراب البحر . وقد يبلغ التملق والنفاق ببعض ركابها ان يحولوا نظرهم الى الشاطىء الثاني اذا مروا عليها . وكذلك الصنادل والسفن اذا قربت منها تخط ذلك القوس تباعدًا عنها واذا قسرها البحر الى القرب قليلاً منها صاح

العساكر على من فيها ان يبعدوا فان لم يفعلوا بعد التنبيه الثاني هددوهم باطلاق الرصاص عليهم فهي محميَّة من جهة البحر بشوكِ الحراب ونار البنادق اما مِنْ جهة البر فلا يمكن لعابر الطريق ان يصعد نظرهُ الى نوافذها او يقف امام جدرانها وابوابها فان فعل هذا احد اخذهُ المراقبون اخذ الجبارين الى مالك مطلق التصرف وهو الحاج حسن باشا الفريق محافظ بشكطاش حامل النشان العثماني المرصع فيستنزف تامور قلبهِ بالاستنطاق وهذا ديدنهُ وهذا دأْبهُ ليلاً ونهارًا

ومِنْ عجيب ما يتناقلهُ الناس في خلواتهم ان احدى المركبات وقفت عن السير امام السراي لتعب مسَّ خيولها او حرن ادركها فضبطت الواقعة ودام التحقيق مع سائقها وراكبيها اياماً حسوماً عرف المحققون فيها وظائف راكبيها ومساكنهم وجيرانهم واقاربهم حتَّى اذا لم يبقَ ظل شبهة لديهم اطلقوهم بعد الكشف عن الخيل بطبيب بيطري . وهذه الاشياء التي يتعجب منها الناس ويستبعدون وقوعها ولا

يكادون يصدقونها هي اهم ما يشتغل بهِ الخاصة المقربون الذين يسمون انفسهم (بنده كان او فداكار) وبنده كان هذه كلمة فارسيَّة معناها عبيد ولكنها اختصت بمن تشرف بالمحسوبيَّة لذات السلطان . وفداكار من يفدي السلطان بروحهِ وهاتان الكلمتان مفتاحان يفتح بهما المتملقون كنوز مصالحهم وسرَّان عظيمان يبيحان لحاملها ان يفعل ما يشاءُ غير آثم ولا مذنب لانهُ وهب روحهُ لحب ذات السلطان

قد خرجنا من سراي چراغان كما دخلنا لا نعلم شيئاً وهذه القصة تشبه ببعض وجوهها حكاية ذي القناع الحديدي الذي كان محبوساً عند لويس الرابع عشر ملك فرنسا وبقي امرهُ في ظلمات الخفاء لا يعلمهُ احد لليوم وكل ما يقال عنهُ حدس وتخمين لايغنيان من الحق شيئاً . وهذا آخر ما نقولهُ في دائرة الباش اغا

المقالة السادسة

دائرة الياوران في المابين

هذه الدائرة تحتوي على فحول القواد وقروم الابطال ورجال الحروب وفيها منهم

ابطال مملكة أُسود خلافةٍ ظل الهدى غابٌ لهم وعرينُ

الآَّ ان التجارة الرائجة في السراي استنأت بهم بعضهم وشجاعتهم فكسروا جفونهم للمطامع وناموا عن شأن الاسلام الذي قام عزهُ على سيوف آبائهم واجدادهم . واصبحوا يتلون وصايا الانكماش والانقباض بعد ان كانت تتلى وصايا المعالي بين اظهرهم وصاروا يتحينون فرص العطاء كانهم من الشعراء

وهم ثلاثة اقسام . ياور . وياور اكرم . وياور فخري . وسرياور (اي رئيس الياوران) وهو محمد باشا صاحب رتبة الفريق وصهر جلالة السلطان . فالياوران الاكارم ينيفون على عشرين كلهم من اعاظم المشيرين . والياوران مائة

وعشرون والياوران الفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم الى رتبة المشير ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين ولا ملك من الملوك المتقدمين والمتأَخرين ما اجتمع اليوم منهم على الباب الرفيع والسدة السنيَّة . كما انهُ لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال امبراطوريَّة وسعة مملكة في عهدنا ان يكون في قوادها عشرة من المشيرين وللدولة العثمانيَّة المجد الاثيل بان لها في قوادها ستين مشيرًا . والمشير هنا هو المارشال مثل مولتك في المانيا ومكماهون في فرنسا وولسلي في انكلترا

قلنا ان عدد المشيرين حول السدة السلطانيَّة ستون مشيرًا اما الدولة البريطانيَّة فليس في وسعها ولا في سعتها الاَّ تعيين ستة مشيرين احدهم ولي عهد الملكة والآخر عمها والاربعة الباقون اشتهروا في حروبها كاللورد ولسلي في مصر واللورد روبرتس في الهند والدولة الفرنسويَّة كان عندها اربعة مشيرين ايام حربها مع المانيا ولم يخلفهم احد بعد وفاتهم ويضرب الاوربيون المثل في بطر بونابرت الفاتح

الكبير مع ان مشيريه لم يبلغوا العشرين ولكن اين هم منا وعدد مشيرينا لا يقل عن الستين . والدولة الروسيَّة ليس فيها اليوم الاَّ مشير واحد هو جوركو الشهير وامبراطوريَّة المانيا لم يبقَ بها مشير بعد مولتك ومونتفل . وايطاليا لا مشير لها . واسبانيا فيها مشير واحد هو كمبوس الذي ايد ملك العائلة الحاضرة وقهر احزاب الدون كارلوس

اما المشير بمعنى ذي الشورى فقد تعالت عنهُ الدولة العليَّة علوًّا كبيرًا

ولم يسمع ان الياور الذي وضع عند الاوربيين لمعاون القائد في ساحة القتال يكون في رتبة المارشال. ولكن الدولة الامر المطلق فتهب ما تشاء من الالقاب لمن تشاء من الرجال ورتبة الياور الاكرم في المابين فوق كل المراتب قدرًا .

وكان جواد باشا الصدر الاعظم السابق يوقع على اوامر الدولة متأسفًا هكذا "صدر اعظم وياور اكرم" ولو سلّم لهُ لقدَّم الثاني على الاول لانهُ يرى ان في الياور الاكرم معنى الخدمة الخصوصيَّة لذات جلالة السلطان فهو يفضلها

على الوكالة العامة المطلقة عن الخلافة والسلطنة. ومن هذا
وغيره يظهر ان هؤلاء الافاضل اعتبروا ان السلطنة
والدولة والخلافة والامة والاسلام والمسلمين اشياء خلقها
الباري عزّ وجلّ لخدمة الذات السلطانيّة لا أن جلالة
السلطان الذي رفعهُ الله الى مقام الخلافة هو المسأول
المكلف ان يحفظها بنفسهِ. ونحن ننزه ايمان جلالة السلطان
ان يصغى الى زخرفهم فان الامر في القيام بشأن الخلافة
عند الله عظيم

ومن الياوران الاكارم الغازي عثمان باشا اسد بليفنا ونعامة
يلدز وهو مشير المابين ولهُ المراقبة والسيطرة على العساكر
المحافظين على القصر السلطاني داخلاً وخارجاً حتى لا يقع
بين افرادهم شغب او اهمال في الخدمة فلا يكاد يغيب عن
السراي فان دعت الضرورة ان يفارقها بعض الدقائق
ارسلوا اليهِ في الحال فيحضر سريعاً ويباشر المراقبة المستمرَّة
التي لا يؤتمن عليها غيرهُ وقد كان جلالة السلطان امر مرة
بتعيينهِ سر عسكر فلم يبقَ الاَّ اياماً قلائل في هذه الوظيفة

ثم رأى جلالة السلطان ان لا غناء عنهُ في السراي وقد
قيل للمرحوم توفيق باشا الخديو السابق ان يبعث لهُ بتهنئة
فقال المغفور لهُ اخشى ان يعزل قبل ان تصل التهنئة
وهكذا صار ولهذا بلغ شرفهُ في السلطنة ما لم يبلغهُ احد
فان جلالة السلطان زوَّج بنتيهِ مِنْ ابنيهِ . ولهُ دائرة خاصة
في المابين من اعظم دوائرهِ ويزار فيها ويقصدهُ القاصدون
ذوو الحاجات من العساكر وغيرهم فيقضى من حوائجهم .
ولهذا فالعسكري في المابين بما يقدم لهُ من انواع الاكرام
والاعتناء بشؤونهِ فيما زاد عن الحوائج الضروريَّة فوق
الضابط في الخارج الذي يقف حيران عاجزًا وسط احتياجات
حياتهِ . وكل من في المابين يحترم هذا الغازي لوقارهِ وسنهِ
وحسن بلائهِ في خدمة الدولة وبينهُ وبين السيد ابي الهدي
ما يكون بين المتناظرين من المجافاة والمعاداة . فمن ذلك
ان جلالة السلطان شكا يوماً الى الغازي فتورًا يجدهُ في
جسمهِ الشريف فقال لهُ لو استراح جلالة وليّ النعم عن
الاشغال ثلاثة ايام او اربعة لزال ذلك الفتور الذي يجدهُ

مولانا. فمال جلالتهُ الى رأيهِ وشكرهُ عليه. ثم حكى جلالة السلطان للسيد ابي الهدى عن فتورهِ وعما قالهُ الغازي عثمان باشا لهُ فقال السيد. سبحان الله ان هذا يخالف الصداقة الّتي كنت اعلمها من عثمان باشا لجلالتكم فان تأخير جلالتكم عن مباشرة الاشغال يوماً واحدًا موجب للقيل والقال والقلق والاضطراب وكيف خفى هذا على عثمان باشا . فتكدر جلالة السلطان وبعث الحاج علي بك الباشمبنجي الى الغازي يعتب عليهِ فيما اشار بهِ على جلالتهِ وكثيرًا ما يمرُّ الغازي عثمان باشا والسيد ابو الهدى جالس فاذا حاذاهُ مدَّ السيد رجلهُ تهاونًا بهِ بما لهُ مِنْ عظيم المنزلة لدى جلالة السلطان

ومنهم الغازي مختار باشا وهو من اعظم القواد فضيلة واعزهم نفساً واجلهم قدرًا وهو وكيل الرئاسة السنيَّة على مجلس التفتيش العسكري في السراي السلطانيَّة . وننقل هنا حكاية وقعت تدل على غيرة نفسهِ وشرف اخلاقهِ ومحافظتهِ على الاسم العسكري وذلك ن جلالة امبراطور المانيا بعث

الى جلالة السلطان نشان النسر الاسود مع برنس الماني
من ذوي الوجاهة والشان اجلالاً للمقام السلطاني ولما
حضر البرنس احتفل جلالة السلطان بهِ احتفالاً عظيماً وبعد
الوليمة السلطانيَّة الَّتي اعدت لهُ امر جلالتهُ ان كبراء
السلطنة يتناوبون في دعوتهِ لوليمة يدعوهُ اليها كل واحد منهم
وامر جلالتهُ عثمان بك كيلارجي باشي ان يذهب الى
كل من جاءَت عليهِ النوبة فيسألهُ عما ينقصهُ من لوازم
الوليمة فيتممهُ لهُ من السراي السلطانيَّة فكان بعضهم يرفع
الستائر والكراسي من بيتهِ الى جهة اخرى ليفرش بيتهُ في
كرامة الوليمة ولما جاء عثمان بك الى الغازي مختار باشا
وسألهُ عما ينقصهُ ليكملهُ لهُ قال لهُ اني بنعمة وليّ النعم
مولانا السلطان لا ينقصني شيءٌ . ولما سافر البرنس ورد
مكتوب مِنْ جلالة امبراطور المانيا لجلالة السلطان يثني
على الغازي مختار باشا ويمدحهُ بناءً على ما سمعهُ من البرنس
من اوصافهِ الكاملة واخلاقهِ الكريمة وسعة اطلاعهِ وعلمهِ
بالفنون العسكريَّة وغيرها ويهنئ السلطنة بقائد مثلهِ فأَمر

جلالة السلطان باستدعاء الغازي الى السراي ولما حضر
بعث جلالتهُ اليهِ من يبلغهُ الرضا العالي وحسن التوجهات
السلطانيَّة وارسل لهُ من طعامهِ الخاص احتفاءً بهِ ووعد
ان يقابلهُ في الصباح وفي الليل اعطى خمسة آلاف جنيه
الى عثمان بك وكان المابينجي الثاني ليوصلها الى الغازي
احساناً من لدن مكارمهِ وكان في نفس عثمان بك بعض
الحزازات من الغـازي فجاء اليهِ يقول بصوت عال قد
جئت لك باحسان لم ترَهُ في عمرك ولم يرهُ ابوك في عمرهِ
وقدم ورقة المبلغ فقال لهُ مختار باشا ان قبول الاحسان
من جلالة مولانا السلطان قلَّ او كثر من أجلّ ما يتشرف
بهِ الانسان ولكني لا اقبل عطيَّة غلافها كلامك هذا . ولم
يأخذ الورقة ونزل من السراي ليلاً الى بيتهِ وكتب مكتوباً
الى المرحوم رشيد بك الكاتب الخاص لجلالة السلطان
يذكر لهُ الحكاية وما سمعهُ من الكلام الذي لا ينبغي ان
يقترن بعطيَّة سلطانيَّة . وفي الصباح امر جلالة السلطان
بحضور الغازي الى سدتهِ فأخبرهُ عثمان بك بما شاء فغضب

جلالة السلطان ثم دخل رشيد بك فعرض مكتوب الغازي فأحضر جلالة السلطان عثمان بك وكدرهُ تكديرًا كثيرًا وامر ان يبعث في الحال الى الغازي بمركبة من السراي ليحضر فيها ولما مثل بين يدي جلالتهِ اعطاهُ العطيَّة بيدهِ الشريفة ولاطفهُ غاية الملاطفة ورجع الغازي شاكرًا للاحسانات المتتابعة عليهِ في آن واحد

ومنهم نصرت باشا وهو رجل شهم القلب مقدام الاَّ ان جسارتهُ طوحت بهِ الى النفي في بغداد وهو فيها الآن ولهُ دلال على جلالة السلطان وكلمات بهلوليَّة فأرسلهُ السلطان الى شاه العجم بنشان وعند رجوعهِ الى الحدود العثمانيَّة فاجأَهُ التلغراف بان يذهب الى بغداد فذهب اليها وقدكان في الحضرة السلطانيَّة مرة ولما أُمر بالجلوس سحب الكرسي من تحتهِ سجاده جي باشي فوقع فأوجب ذلك ضحكًا عليهِ ولما خرج دعا الى حجرتهِ سجاده جي باشي واغلق الباب وضربهُ ضربًا مبرحًا وقال لهُ اياك والمزاح مع عسكري مثلي . ولهُ اشياء فوق ذلك لم تحملها عظمة التخت

ومنهم درويش باشا وابنهُ صهر جلالة السلطان وهو الذي بعثتهُ السلطنة الى مصر مع السيد احمد اسعد في حكومة المغفور لهُ الخديو السابق لاخماد الفتنة العرابيَّة . والسيد اسعد هذا هو الذي بعثهُ جلالة السلطان الى سفير الانكليز في الاستانة ليخابرهُ في مسألة سياسيَّة فتخلص من الدخول فيما لا يحسنهُ بالتمارض واسترسال السعال. ولما قدم درويش باشا الى مصر مع صاحبهِ اكرم المغفور له الخديو السابق مثواهما واحسن نزلهما وبوَّأهما من مكارمهِ اعلى منزلة وظن انهما يستأصلان الفتنة بشهامة احدهما وحكمة الآخر فقفلا عن مصر بحسن حظهما غانمين سالمين وتركا مصر لسوء حظها اشد ارتباكاً واعظم اضطراباً ووضعا ذنب اخفاقهما على كواهل المصريين وطفقا يذمان مصر وتثني عليها الحقائب . ولو كان لمصر من حسن الاتفاق طالع سعيد لجاء غيرهما واخمدا الفتنة في بدء اشتعالها ولكن ما الحيلة وهؤلاء رجال السلطنة والسلطان وحدهُ لا يقدر على كل شيءٍ . والياور الاكرم المشار اليهِ ارنؤودي من ذوي البيوتات العظيمة في بلاد

الارنؤود. والسلطنة ترى فيهِ عوناً سديداً وركناً شديداً على ضبط البلاد الارنؤودية وهو يرى بهذا ان بلادهُ صارت لهُ ملكاً يتصرف فيهِ تصرف المالكين . والمساكين سكان البلاد زادوا بهِ طبقة ضاغطة فوق الطبقات الضاغطة فوق هواديهم وطوقاً على اطواقهم التي في اعناقهم

ومن الياوران الاكارم اسمعيل باشا الكردي الرئيس الثاني لمجلس التفتيش العسكري ومنزلتهُ في بلاد الاكراد منزلة درويش باشا في بلاد الارنؤود ولهذا لهُ المقام الاسمى في السراي ولهُ بهِ النفوذ الاقوى الذي تنطوي تحتهُ الفوائد الجمة من البلاد الكردية وقد اتخذهُ جلالة السلطان صهراً . وعلى هذا كلما زاد القبول في السراي زاد النفوذ في البلاد وكلما زاد النفوذ في البلاد زاد القبول في السراي الى ما شاء الله من درجات السعادة لصاحبها والى ما اراد سبحانهُ من دركات الشقاء للعباد والبلاد

ومنهم شاكر باشا وكان سفيراً للدولة في الروسيا وقد ترشح اسمهُ لمسند الصدارة مراراً لتقلبهِ في السياسات العالية

ولما هو مشهور عنهُ من سداد الرأي . وقد جعلهُ جلالة
السلطان سفيراً بينهُ وبين سفراء الدول في الاستانة
للمخابرات السياسيَّة ثم اختارهُ في هذه الايام مراقباً على
الولايات الارمنيَّة لان لسفراء الدول بهِ ثقة . ولما ارسل
الى كريد لتسكين ما كان فيها مِن الاضطرابات كان جواد
باشا الياور الاكرم والصدر السابق في معيتهِ ثم عاد شاكر
باشا الى الاستانة وبقي جواد باشا وكيل الولاية فيها وأُحسن
عليهِ برتبة المشيريَّة ثم عين صدراً اعظم واستقدم الى الاستانة
فسار شاكر باشا بامر جلالة السلطان الى الباخرة لاستقبال
من كان في معيتهِ حتى يعلم ان الرفعة والضعة بيد السلطان
وان جلالتهُ يرفع من يرفعهُ ويضع من يضعهُ على ما
تقتضيهِ حكمتهُ فأَدى واجب تلك الطاعة على أحسن ما
يصدر عن عبدٍ لمولاهُ وحمل هو والشيوخ من القواد امثالهِ
على رؤُوسهم رئاسة الصدر جواد باشا الذي صعد الى أَعلى
وظيفة في الدولة وهو في عنفوان الشباب ومقتبل العمر بقوة
التقارير الَّتي كان يقدمها والاخبار الَّتي كان يرفعها واخذ

ير فرف على رؤُوسهم في جوّ الاقبال بتلك التقارير ويتقدمهم بها في درجات الابهة حَتَّى جاءَ المفتش وانزلهُ من الدرجة الَّتي كان دخلها بغير حق الى الدرجة الَّتي يستحقها بتذكرتهِ[1] ولا اظن ان احدًا من هؤُلاءِ القواد الذين يبيتون على الحشايا الوثيرة وفوق الاسرة المذهبة مستريح القلب اذا مرَّ على فكرهِ تاريخ حياتهِ وما لاقاهُ في الحروب وما قاساهُ من الخطوب وقابلهُ بتقدم من طار باجنحة التقارير حَتَّى حط على رأسهِ الَّا ان ثلاثة منهم وهم شاكر باشا هذا وفؤَاد باشا المصري ودرويش باشا لما اخذهم المقيم المقعد من تيههِ وكبرهِ قدموا عريضة الى جلالة السلطان يلتمسون فيهـا احالتهم على المعاش فغضب جلالتهُ من أقدامهم وعتب عليهم

«١» الَّف بعض الانكليز رسالةً في سيرة عشرين رجلاً ارتقوا على غير استحقاق فلم يلبثوا ان هبطوا بعد الارتقاء فشبههم في ارتقائهم وهبوطهم برجال يركبون مركبات أعلى مما يحق لهم ركوبهُ في القطار حتى ياتي المفتش ويرى تذاكرهم فينزلهم من مركبات الدرجة العليا إِلَى مركبات الدرجة اُلَّتي تستحقها تذاكرهم. فجرى هذا التشبيه عند الكتاب مجرى الامثال السائرة

ثم استرضاهم بحكمتهِ وسياستهِ

ومن الياوران الاكارم ايضاً فؤاد باشا المصري وبهِ تفتخر مصر لعزة نفسهِ وثبات جأشهِ وقوة فؤادهِ وصداقتهِ لجلالة السلطان الاَّ ان فضائلهُ رمت بهِ في مشاكل لا يسلم الواقع فيها في كل وقت وضيقت عليهِ حلقات الاستنطاق في امور رمتهُ فيها سذاجة الصادق الامين ومع هذا فانهُ لا يخرج منها لحسن نيتهِ الاَّ بالعطايا الطائلة . بعثهُ جلالة السلطان الى امبراطور النمسا بنيشان فاشترى من فينا سلاحاً اعجبهُ ليقدمهُ الى الحضرة السلطانيَّة فابلغوا جلالتهُ قبل تقديمهِ الى سدتهِ ان فؤاد باشا اشترى سلاحاً وميرة لقصدٍ سيءٍ فأُخذ عند قدومهِ الى الاستنطاق وفي هذه الاثناء نزل جلالة السلطان من يلديز الى بشكطاش لصلاة الجمعة — قبل ان يحرم المسجد الحميدي مساجد الاستانة واهلها من التمتع بركابهِ ورؤيتهِ الَّتي بها انتعاش القلوب — وكان هو وراء الجواد الذي يركبهُ جلالة السلطان وبهرام آغا بجانبهِ والوزراء والمشيرون مشاة ولما ملأ بهرام آغا عينهُ

من هذه العظمة الملوكيَّة وضع يدهُ على كفل الجواد وقال بسم الله ما شاءَ الله . فجفل الجواد وضرب برجلهِ فأَصابت يد المشير فؤَاد باشا وكادت تضرُّ بها ضررًا عظيماً فتقوَّل الذين يتحينون فرص التملق اقوالاً استوجبت استنطاق فؤَاد باشا وبهرام آغا عند رجوع جلالة السلطان الى السراي فخلص الآغا بكلمات قالها وقويت الشبهة على فؤَاد باشا لمسأَلة السلاح الذي كان الاستنطاق جاريًا عليهِ فيها فأَقام في السراي ثلاثة ايام لا يأْكل طعاماً حتَّى كاد يأْتي على نفسهِ . ولما سمع سعيد باشا الصدر الاعظم بهذا وكان حينئذٍ باشكاتب الحضرة السلطانيَّة عرض الامر على جلالة السلطان فصدرت الارادة السنيَّة بالعفو عنهُ . هذه عيشة السراي الَّتي يتحاسد عليها المتحاسدون ويتنافس فيها المتنافسون . وقد اتهمهُ اعداؤُهُ باكبر من هذا حتَّى رمى بشرائط الكسوة العسكريَّة الَّتي كانت عليهِ امام الحضرة السلطانيَّة لما بلغت الروح التراقي من كيد الذين يستنفرون من ذي فضيلة بينهم ثم احسن عليهِ جلالة السلطان بمعدن

باعهُ بثمانين الف ليرة . وفي العام الماضي اعيدت عليهِ الكرة في فتنة اخرى زعموا انهُ أحضر من اوربا بعض مواد التهابية كالديناميت وغيرهِ فصدرت الارادة بتفتيش بيتهِ فلم يجدوا الاَّ العاباً ناريةً احضرها لزينة يوم الجلوس السلطاني

هذا حال الامين اذا وُجد بين الخائنين وهذا فعل الخائنين في اضاعة الاوقات (الضروريَّة لاصلاح حال الدولة) على جلالة السلطان مع علمهم انهُ قائم وحدهُ بادارة الشؤون كبيرها وصغيرها وان اوقاتهُ كلها لا تكفي لذلك .

ما تداخلات الدول في امورنا من شيء قليل

قد ذكرنا من ينبغي ان يذكر من الياوران على حدتهِ اما الباقون فاكثرهم لا يذكرون الاَّ في المقالة التالية مقالة الجواسيس المعروفين بالخفيات

المقالة السابعة

الجواسيس

يهجر الانسان لذَّاتهِ ويرفض راحة حياتهِ لطلب العلم ويضرب في الارض ويجمع من قوتهِ لنوال الاثراء وينازل الابطال ويصارع الاهوال لبلوغ العلياء حتَّى اذا مضى العمر الاَّ الاقلّ قيل لهُ طالب علم أو غني أو عظيم القدر. اما انسان الاستانة فلهُ طريق الى العلياء مختصر ينال الاثراء والعلياء وشهرة العلم في يوم واحدٍ وليس عليهِ في الوصول الى مطلبهِ الاَّ ان يكتب تقريرًا ملفقًا يتهم فيهِ الابرياء الامناء والصادقين الغافلين فتنثال عليهِ الدنانير ويطلع في صدرهِ قمر الوسام بازغًا وتخاطبهُ الدولة بالفضيلة والسعادة. ولا يلبث اهل بلد يرون في هذا مورد ثروتهم وجاههم ان يزدحموا عليهِ وينسلوا من كل حدب اليهِ فاذا انتشر وباؤُهُ فيهم امات الفضائل واحيا الرذائل وأضحك الاعداء وابكى الاولياء وافقر الصادقين واغنى المنافقين والقى العداوة

والبغضاءَ بين الراعي ورعيتهِ فانحاز الراعي الى الاعتصام
منهم والبعد عنهم وترك الرعيَّة في البكاء من عملهِ فلا
يستريح ولا يستريحون . واذا اوجس الوالد خيفة من
اولادهِ فالحياة مُرَّة والعاقبة ادهى وامرّ . ولهذا احرق
دهاة الملوك اوراق السعايات والوشايات الواصلة اليهم
قبل الاطلاع عليها فسلوا بحكمتهم وقوة نفوسهم الاضغان
والاحقاد من القلوب وملؤُوها بمحبتهم وبالاذعان لهم بعلو
الهمم وسموّ المدارك وعاشوا بهذا مع رعاياهم تحت ظل
الامن والامان والمحبة والاحسان وتفادوا بهِ ارق الليل
وقلق النهار . وممَّا يذكر من هذا القبيل ان محمد علي باشا ارسل
الى الاستانة مملوكاً من مماليكهِ اسمهُ عبد اللطيف بمأمورية
فاستهواهُ رجال الدولة كما هي عادتهم في استجلاب من تقع
ايديهم عليهِ من الحاشية المصريَّة واتفقوا مع عبد اللطيف
هذا بعد الاحسان عليهِ برتبة سامية انهُ عند رجوعهِ الى
مصر يجتهد في تشكيل جمعيَّة تقاوم مُحمَّد علي فلما جاءَ عبد
اللطيف باشا الى مصر فعل ما امروهُ بهِ فبلغ محمد بك

لازاوغلي تشكيل تلك الجمعيَّة فاستحضر عبد اللطيف باشا
المذكور وامر بقتلهِ فقال الرجل أريد ان اقول لك
كلمات في اذنك قبل قتلي فأبي وامر بالاسراع في قتلهِ
فاعترض عليهِ احد اصحابهِ في امتناعهِ عن سماع ما كان
يريد ان يسره ُ لهُ فقال محمد بك خشيت أن يرتاب من
كان متفقاً معهُ فيقع الفشل بين الناس وانا مكلف براحتهم.
اما اذا اكرم الملك على الوشاية واحسن على السعاية وقدّم
على الأفك واخر على الصدق وتبسم في وجه الدنيء وقطب
في وجه الشريف فلا تلبث القلوب ان تفسد والخطوب
ان تتفاقم . والقلوب اذا ملأها الخوف والحقد لا يعالجها
الاحسان والانعام ولا يداويها التلطف والابتسام وربما
زادها الاحسان مرضاً والابتسام مضضاً فيستعصى الداء
وينتهي الامر بانطواء مصالح الدولة العامة تحت مصلحة خاصة
واحدة وهي محافظة الملك على نفسهِ فتنحل عرى السلطنة
حينئذٍ وتمتد الايدي الاجنبيَّة من الخارج اليها وتعاونها
القلوب من الداخل للانتقام والخلاص منها ويصبح من

بيدهِ الامر المطلق بين المتاعب والمخاوف تطالبهُ الرعيَّة برفع الايدي الاجنبيَّة عن الملك وتأمرهُ نفسهُ بالمحافظة عليها خوف الفتنة وتكلفهُ الدول باصلاح بلادهِ . ولما كان من المحال القيام بهذا العمل جميعهِ في آن واحد انحصرت القوى كلها في المحافظة على النفس

واذا امعن المنتقد فيما كتبنا لا ينسبنا الى المبالغة ان قلنا ان الحال في الاستانة قد وصل الى هذا الحد وكاد يتخطاهُ

قال يوسف رضا باشا لصديق لهُ ان جلالة السلطان قد تعوَّد ان يسمع مِنْ جواسيسهِ كل يوم خبرًا مقلقًا على نفسهِ فاذا مرَّ يوم ولم يأتهِ فيهِ ما يقلق خاطرهُ على نفسهِ بقيام فتنة وتشكيل جمعيَّة ظن انهُ وقع ما يخشاهُ وما اتاهُ خبرهُ فيبقى متكدرًا حتَّى تكتب لهُ الجواسيس بشيء مِنْ هذا القبيل فيشتغل بتحقيقهِ فاذا ظهر لهُ كذبهُ كغيرهِ من الاخبار السابقة سرّي عنهُ واستراح خاطرهُ. واذا اخبر جلالتهُ احدًا منْ خاصتهِ بانهُ بلغهُ ان جماعة ينوون لذاتهِ شرًّا فان كذَّب الرجل لجلالتهِ الخبر بالبراهين ليذهب

عنهُ الكدر ارتاب فيهِ وظن انهُ يحاول كتم الامر لدخوله فيهِ . وقال جلالتهُ يوماً لاحد المقربين لسدتهِ السلطانية شاكيًا من كثرة الاشغال لديهِ انهُ وصل لمقامهِ الاسنى ثلاثة تقارير في مسافة نقض وضوءهِ

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشييدها والشريعة وتأييدها والجنود وترتيبها والاحكام وتقويمها والماليَّة وتنظيمها والمعارف وتعميمها وعلائق الدول وتوثيقها والسياسة وتنسيقها والسفن وتعميرها والمنافع العامة وتكثيرها

لا يبقى من الزمن الاَّ ما يكفي لسماع تقارير السادة المشايخ ودسّ بعضهم على بعض ليأخذ زيد مكان عمرو وينال بكر منزلة خالد . ولو اشتغل الاساتذة الجهابذة في اقامة الحجة على الاوربيين في هذه الايام بان دين الاسلام ليس كما يزعمون بعيدًا عن التمدن والاصلاح بل هو عدل وانصاف وحكمة وهدًى لكان ذلك أولى بقوم تكتب القاب احدهم في ثلاثة اسطر فلا يصل القارئ للاسم الاَّ بعد صفوف من الالقاب

ولما علم الجواسيس انهُ لا يؤْخذ بيد العناية الاَّ التقارير الَّتي تختص بذات السلطان السنيَّة وتحققوا ان لا عقاب على الكاذب للقول المشهور بين رجال المابين " اذا عاقبنا الجواسيس على كذبهم ضاع منا الصدق فعليهم ان يكذبوا وعلينا ان ننتقد " اكثر الجواسيس من القاء الريب بين الراعي والرعيَّة وتفننوا في افانين الفتن ونزلوا الى طبقة دنيئة في التجسس حَتَّى انك لتجد مأمورًا من ذوي الرتب واقفاً في زاوية من زوايا الوزارة الَّتي هو مأْمور فيها مع جارية سوداءَ من اللاتي يبعنَ الحلواءَ فاذا كشفت نجواهما علمت ان الجارية باغرائهِ تدَّعي على رجل من العامة انها سمعتهُ يحادث آخر على قصد جلالة السلطان بسوءٍ فيشتغل ناظم باشا ناظر الضبطيَّة الايام والليالي لتحقيق هذا البهتان ويبعث باوراق التحقيق متتابعة الى السراي

ولا يخطر بعاقل ان في الاستانة رجلاً واحدًا يحدث نفسهُ بهذه الخيانة لجلالتهِ الَّتي يعدُّها فوق الكفر ولكن الجواسيس يعلمون الناس الفتنة ويجرُّونهم الى الهلاك

ويوقعونهم ولا ذنب لهم في سخط جلالتهِ وغضبهِ ولهذا قطع جلالتهُ عادة آبائهِ واجدادهِ في تأدية صلاة الجمعة في مساجد الاستانة . وكان لهُ عادة ان يصلي في بعض الجمع في تكيَّة بناها بقرب السراي للشيخ محمد ظافر فحسدهُ حاسد — ولا تستبعد وجود الحاسد لمكان هذه النعمة العظيمة — فجاءَ البرق من اقصى بلاد البلغار يحمل خبرًا فظيعاً وهو انهُ قد وضع الديناميت في ارض التكيَّة فقامت القيامة في بشكطاش وحُفرت ارض التكيَّة ونقض بعض بنائها ولم يظهر شيءٌ من هذا . ولكن قرَّت الشبهة في النفس فترك جلالتهُ الصلاة فيها واختص المسجد الحميدي بهذه المزيَّة الجليلة دون سواهُ . كيف يستريح الملك مع حاشية هذا حالها وهذا كيدها فمها ابتسام وقلبها انتقام . وهم يشبهون بعضهم بعضاً بالمئذنة ظاهرها مستقيم وباطنها ملتف معوجّ

كان للجواسيس دائرة في السراي يجلس فيها (سر خفيَّة) اي رئيس الجواسيس وهو احمد باشا الجركسي فلم يسلم من شرهم لانهم اتهموهُ بعزمهِ على تشكيل سلطنة

جركسيَّة فجرى عليهِ حكم الاستنطاق ببوابهِ وانتهى الامر
بنفيهِ الى حلب مع براءتهِ وصداقتهِ لوليّ نعمتهِ. وقام مكانهُ
في هذه الوظيفة قدري بك كاتبهُ ولما عم الامر وصار كل
فرد في السراي (سر خفيَّة) أُلغيت الوظيفة الخاصة
للوظيفة العامة . ولفظة خفيَّة بمعنى الجاسوس قد زالت
عنها في الاستانة وصمة العيب وصارت ممَّا يفتخر بهِ. قالت
احدى السيدات الاميرات لاحد وكلاء الدولة بلغني انك
خفية يا باشا — منكرةً عليهِ — فقال وماذا يعلق بي من
هذا الَّا الشرف والافتخار فكلنا جواسيس لجلالة مولانا
والجواسيس قسمان قسم من اكابر الدولة يتلقى اللقب
العالي للشرف والفخر وقسم بالمرتبات الشهريَّة . وممَّا يحكي
من نوادرهم ان تركة شهر مبيعها فحضر فريق عسكري
ليشتري منها ما يعجبهُ فاعجبهُ جملة من الكراسي فاشترى
منها خمسة وثلاثين كرسيًّا. فكتب الجاسوس تقريرًا في الحال
يقول فيهِ ان فلانًا الفريق قد حضر الى التركة الفلانيَّة
واشترى منها خمسة وثلاثين كرسيًّا . ولولا انهُ على عزم ان

يعقد جمعيَّة ما اشترى هذا العدد الكثير من الكراسي. فصدر الامر بعزل الفريق

الَّف حسن فهمي باشا كتاباً في حقوق الدول اعجب بهِ العارفون واستحسنهُ الواقفون عليها وطبع الكتاب وانتشر في سائر الاقطار وقرأهُ المؤلف بنفسهِ مراراً على طلبة مكتب الحقوق وقدَّم منهُ نسخة لجلالة السلطان لتوضع في المكتبة السلطانيَّة وتكلمت الجرائد التركيَّة والافرنجيَّة والعربيَّة عنهُ ورسمت نظارة المعارف درسهُ في مكتب الحقوق مع بقيَّة الكتب الَّتي اختارتها للدرس فيهِ فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمي باشا ويتهمهُ بالخيانة والغش لذات السلطان لوضعهِ جملة عظيمة الضرر غزيرة الشر سيئة العاقبة كبيرة الاثم في كتابهِ "حقوق الدول" قصد بها قيام الحجة على السلطان بتداخل الاجانب في داخليَّة الممالك محروسة المسالك. ومضمون تلك الجملة انهُ اذا اختلت داخليَّة دولة مِن الدول فيكون للدولة المجاورة للخلل الحق في طلب الاصلاح. وكتب الجاسوس

تقريرًا لجلالة السلطان بهذا فجاءهُ الطلب الى السراي وقوبل بالاحسان والالطاف وصدرت الارادة السنيَّة في الحال بجمع الكتاب واحراقهِ وان لا يذكر في مكتب الحقوق اسمهُ وان يرسل كتاب توبيخ الى حسن فهمي باشا على ما كتب وبالاحسان على الجاسوس بالرتبة الاولى من الصنف الاول وبمائة وخمسين ليرة. وقد قال الجاسوس بعد خروجهِ من المابين لصاحبٍ: عليَّ بعدُ تقريران لرتبة الوزارة

يا كساد العلم ورواج الجهل ويا شقاء الحق وسعادة الباطل ويا خيبة الصادق ونجح المنافق ويا بكاء الامين وضحك الخائن . اصبحت دار السلطنة الَّتي كانت عرينًا للاسود خلايا تطنّ فيها زنابير الجواسيس واصبح العالِم من شر الجهلاء يوبخ على قواعد العلم يكتبها في تأليفهِ واصبح الجاسوس بظلم العلماء يمشي مرحًا ويختال تكبرًا . كيف يستريح القلب في بلد يتناقل الجواسيس فيهِ خبر هذا الاحسان الذي يمحو من الجمهور كل فضيلة ويعديهم جميعًا

بداء التجسس . ولهذا لا تلتفت ماشياً او قاعداً او راكباً الاَّ وترى جاسوساً يكتب او يطوي كتابهُ او يركب مركبة الى المابين . وقد تعوَّد صبيان القهاوي ان يقدموا للداخل المجمرة والمحبرة فيحرق الجاسوس بالأُولى الدخان وبالثانية الانسان

ويرسل الجواسيس بتقاريرهم الى المابين فمنهم من يرسل تقريرهُ مختوم الظرف بخاتمهِ ولا عنوان عليهِ لاحد الحجاب فيصل في الحال الى جلالة السلطان. وهذا قاصر على الكبراء من رجال الدولة او الجواسيس المحلّفين . وباقي الجواسيس يعطون تقاريرهم مفتوحة لاصحابهم من رجال المابين وهم يضعونها في الظروف ويختمونها باختامهم بلا عنوان ويسلمونها لبعض الحجاب لايصالها الى يد جلالة السلطان فاذا تأَخر جاسوس عن تقديم شيءٍ لصاحبهِ في المابين لامهُ على اهمالهِ او اتهمهُ بانهُ اختار غيرهُ لتقديم تقاريرهِ. فلاجل ان ينفي عن نفسهِ الاول ويتبرأَ من الثاني يصبُّ البلاءَ على الابرياءِ . والويل ثم الويل لمن يصادفهُ

في الطريق من اصحابهِ فان اسمهُ يكون قافية بيتهِ

ومن الغرائب ماحكاهُ رجل كان يذهب لزيارة ناظر الضبطيَّة ناظم باشا في بيتهِ فدخل جاسوس عليهِ واخبرهُ بان فلاناً — وسمى رجلاً — عندهُ وليمة نكاح في هذه الليلة — كأن الولائم من الجرائم — فما اتم الجاسوس كلامهُ حتَّى دخل شابان عليهما اشارة الكمال فقابلهما الناظر بالبشاشة . وبعد تناول القهوة قال احدهما العاقبة عند افندينا الناظر في افراح اولادهِ. فقال ستة . (والرجل الزائر غير ملتفت لنادرة لم يسمعها اول مرة على كرة الارض غيرهُ ولم يحضرها سواهُ كأنهُ يرى انهما يطلبان عدداً من البوليس لاظهار الشأن والابهة). فقال احدهما لا يكفي يا افندينا هذا العدد . قال الناظر ثمانية. فقام الثاني ووقف امامهُ اذلّ مِنْ موءلف يطلب من المعارف اذناً بطبع كتابهِ — فقال ياوليّ النعم ان اهلنا اكثر من هذا العدد . (فلما سمع الرجل الزائر الجملة الاخيرة تنبه للنادرة وصارت اعضاؤهُ كلها آذاناً). قال الناظر عشرة. ثم قال يا بوليس اذهب معهما ولا يدخل

الوليمة الاَّ هذا العدد المقرر . نخرجا والمأتم اولى بحالهما من الفرح . ثم التفت الرجل الزائر الى الناظر يكلمهُ بعينهِ وسنهِ فضحك الناظر وقال ما قصدت والله الاَّ خيرهم . انا الذي وضعت هذه القاعدة والآن يجري العمل عليها في الاستانة جميعها لا يولم احدٌ وليمة الاَّ بعد التماس الاذن من الضبطيَّة بعدد المجتمعين فيها وما اردت بهذا الاَّ التخفيف عليَّ وعليهم والتضييق على الجواسيس ان يجدوا مجالاً واسعاً لاختراع الاباطيل وتلفيق الاكاذيب فاحفظ وقتي لما فوق رأسي من الاشغال ويستريح الناس من العذاب والاستنطاق والحبس والاطلاق. وشرع يشكو ما يقاسيهِ في هذه المأموريَّة من المتاعب والمشاق الَّتي لا تطاق . وقال انهُ يوقظ في الساعات القليلة الَّتي يختلسها لنومهِ سبع مرات او ثماني في كل ليلة لتلقي الارادات السنيَّة في اشغال جلالة السلطان الخصوصيَّة الَّتي يقلق بها الجواسيس خاطرهُ الشريف . وقد نظر الشهاب الخفاجي اليهم من وراء ستر الغيب فقال " ان الاستانة طبق من الفضة مملوءٌ من العقارب والافاعي "

ومن غرائب النوادر ان رجلاً من اهل سلانيك اسمهُ عبد الله افندي كان جالساً على قهوة وكان يمدح رجلاً من العلماء ويصفهُ بالتقى والعلم ولما اراد الخروج من القهوة وجد رجال البوليس ينتظرونهُ فاخذوهُ الى يلديز ولما دخل وجد مأمور الاستنطاق ينتظرهُ فاخذ يسأَلهُ عن معرفتهِ بهذا الرجل الذي كان يمدحهُ ولمَ مدحهُ. فاخبرهُ انهُ كان جارًا لهم ولوالدهِ بهِ معرفة قديمة . ولما كان في حجرات الاستنطاق مواضع يشرف فيها جلالة السلطان احيانًا ليباشر بنفسهِ سير التحقيق حيث يرى منها ولا يُرى كان مأمور الاستنطاق يخرج من الحجرة ويغيب هنيهةً ثم يعود فيسأَلهُ اسئلة فوق قدرهِ كأَن يقول لهُ. هل تعرف علاقة خفيَّة بين الصدر الاعظم وشيخ الاسلام. فيجيب الرجل بالسلب . وقد بقي حائرًا في امرهِ لا يجد جوابًا فيما يسأَل عنهُ من هذا القبيل ثم ادخلوهُ مطمورةً مظلمة كان للمسكين فيها شهيق وزفير وعذاب مستطير ويوم قمطرير . وبعد ثمانية ايام بعثوهُ الى الضبطيَّة فادخلوهُ الى مجلس فيها.

وهذا المجلس ينظر في الامور الخاصة الَّتي تتعلق بالسراي فاجلسوهُ وبعد سؤَالهِ عن اسمهِ صدر هذا القرار العجيب بهذه الصورة وهذا النص "مِن حيث ان عبد الله افندي السلانيكلي ارتكب جناية مِنْ اعظم الجنايات فقد تقرر باتحاد الآراء سجنهُ من غير تحديد مدة مع عدم الاختلاط باحد"

ثم امضى الاعضاء والرئيس وامروا بهِ الى الحبس. فدخل سجّيناً لا سجناً ورتبوا لهُ شيئاً من الخبز والماء يقدمهُ لهُ السجان في اوقات غير منتظمة. فاراد ان يشتري يوماً نوعاً من الطعام لم يكن موجوداً عند البقال في السجن. فقال لهُ السجان لا يمكن ان يدخل الى السجن شيءٌ من الخارج لان البقال اشترى من الضبطيَّة هذه الدكان بمائتين وثمانين ليرة في السنة فهو يحتكر البيع هنا. وبعد اربعة اشهر امر الضابط باطلاقهِ من السجن فخرج المسكين اشعث اغبر كانسان الغابة لا يعرفهُ من يراهُ. وبعد مدة علم ان للرجل الذي كان يمدحهُ قرابة بامام وليّ العهد رشاد الدين افندي. فما يدريك ماذا كتب الجاسوس وماذا رتب على هذا

وقد احرج الجواسيس طائفة الارمن في الاستانة واخرجوهم الى ما نرى ونسمع وافرطوا في التضييق والمراقبة عليهم بما لا يدخل تحت تعريف فان وجد جاسوس على غلاف اوراق السجارة او على علب الكبريت رسماً يشبهُ شراعاً او مجذافاً او دفة او شيئاً من اجزاء السفينة اخذ الرسم وكتب تقريراً معهُ يتهم فيهِ الارمن بطلب الاستقلال لان الارمن هم الذين يشتغلون في هذه التجارة وان هذا الرسم يشير الى السفينة الّتي هي علامة الملك عندهم . فيجمع في الحال ما وجد الرسم عليهِ الى الحريق ويأْخذ ناظر الضبطية في التحقيق والاستنطاق والبحث على الجمعيَّة الّتي تشكلت لطلب الاستقلال . وتنتشر الجواسيس لاستكشاف اعضائها فيحبس الضابط وينفي منهم على موجب ما ترد لهُ بهِ الارادات السنيَّة . وقد ضيقت الحكومة على الارمن في السفر تضييقاً سد عليهم منافذ الهرب فلا تقوم سفينة من الاستانة الاَّ ويراقبها لدقيقة قيامها عشرة من الجواسيس

والحكومة اذا غلب عليها الجبن واحاط بها الخوف

وتولى الادنياء امورها وساس الاغبياء جمهورها وانتشر في جسمها ميكروب الجواسيس فبشر حكامها بالخراب القريب والدمار الوشيك

ومن مخزيات الزمان ومسوّدات وجه العصر ما اصاب الامن العام في قاعدة السلطنة وعاصمة الدولة ومقرّ الامامة من اطلاق ذئاب الجواسيس الطلس على حملان الرعيَّة النائمة في حظيرة الخلافة الاسلاميَّة. فان الجاسوس يسرق ويسلب ويختلس وينهب ويزوّر ويهتك الاعراض ويشهر السلاح ويطلق الرصاص على العاجزين الضعفاء من رعيَّة السلطان ثم تحكم المحاكم بدرجاتها عليهِ حتى اذا لم يبقَ الَّا تنفيذ الحكم جاءَهُ العفو باسماً فيجعل مضبطة الحكم تحت قدمهِ ويأمن عاقبة العقاب في جميع ما يفعل كما وقع لجاسوس حسن فهمي باشا المتقدم ذكرهُ فانهُ اطلق الرصاص في بيتهِ على صهرهِ وتقدمت الدعوى الى المحاكم على حسب العادة وكتبت الجرائد تفصيل تلك الواقعة الشنيعة وحكمت المجالس عليهِ بالعقاب المقرر لجنايتهِ فأدركهُ العفو قبل التنفيذ . فسكر

بنشوتهِ ورجع يحمل على الناس بعربدتهِ. فليبكِ على العدل الباكون وليضحك علينا معشر العثمانيين الضاحكون

وكما حصل لجاسوس آخر من المحلفين اسمهُ محمد مهري من اعضاء شهر امانت (المجلس البلدي) فانهُ كان مديونًا لرجل استخدمهُ كاتبًا في دكانهِ قبل ان ترفعهُ الحظوة الى مقام التجسس ولما مات الرجل ادعى بصك زوَّرهُ عليهِ بالف ليرة وطلب المبلغ من تركتهِ فتقدمت الدعوى الى المحاكم وظهر تزوير الصك بادئ بدء وامرت المحكمة بحبسهِ احتياطًا فحبس اشهرًا ثم حكمت جميع المحاكم عليهِ مع محكمة التمييز بدفع ما عليهِ للورثة الايتام وبحبسهِ ثلاث سنوات على ارتكاب التزوير . وبينا الضبطيَّة تطلبهُ لتنفيذ الحكم عليهِ جاء العفو لهُ طائرًا بجناح النجح. فما اطول استهزاءهُ بعد ذلك بالمحاكم والقوانين وما اسرع بطشهُ بالضعفاء والمساكين

قل لي ايها القارئ اي حامل في هذا البلد الامين لا تتعب الكرام الكاتبين دعاء وابتهالاً ليلاً ونهارًا عشاءً وابكارًا ان تلد جاسوسًا . واي أبٍ لا يتمنى ان ينجب

لهُ ابن في هذه الصناعة لو امن ان يسلم من شره فيها .
لان كثيرًا من الابناء في دار السعادة يسعون بآبائهم .
ولولا خوف التطويل وملل القارىء لذكرناهم باسمائهم

وهكذا يسمع كل يوم بجناية يمحوها العفو وتهمة باطلة يعقبها العقاب . ولقد تقدمت على جاسوس دعوى الى محكمة الاستئناف فارتفعت اصوات الاعضاء بالخلاف في توقيع مدة الجزاء فقال لهم الرئيس خفضوا على انفسكم لا تضيعوا الوقت بالخلف في دعوى مصيرها الى العفو

ومن الغريب ان بعض الدهاة من المشايخ وغيرهم ممن وقفوا على الحقائق وخفايا الامور اللدنيَّة يستكتبون الجواسيس بالوسائط الغامضة والمكر الاخرس تقارير على ذواتهم مشحونة بالتهم الفظيعة والمفاسد الشنيعة والجرائم القتالة فاذا وصلت الى جلالة السلطان وامر باستنطاقهم خرجوا من منافذ التخلص الَّتي فتحوها لانفسهم في تلك التقارير المصنعة خروج السهم من الرميَّة فينالون الزلفى والنعمى ببراءتهم ويتركون اثرًا في نفس جلالة السلطان بتكرار تلك

التقارير المتتابعة يدل على قدرتهم على الشرور والمفاسد وايقاظ الفتن العظيمة بنفوذهم وعصبيَّاتهم . وبهذا بلغ بعضهم ما ليس بعدهُ درجة في الترقي والقرب وبنوا بيوت مجدهم على هذا الاساس وامنوا على انفسهم بهذه الاوهام وزادوا تخوّفوا بها وتربعوا في دسوتهم غير مبالين بتقرير يكتب او رسالة تطبع فان عُرض على جلالة السلطان حقيقة من حقائقهم صاحوا واعولوا واستدلوا على براءتهم بالتقارير المواضي الَّتي بيَّن التحقيق فسادها . ومِنْ الغرائب ان بعضهم يعرض سيئات نفسهِ وذنوب ذاتهِ في قالب يغفل عنهُ الشيطان ويعجز عنهُ الانسان فيستخرج من الشرِ خيرًا ومن الشري شهدًا بقوة دهائهِ وشديد محالهِ وربما اصاب برمية اغراضاً عديدة . فمن ذلك ان يوسف رضا باشا كان يشرب ليلة مع رجل من الجواسيس يبغضهُ لحزازات عليهِ في صدرهِ فاراد الانتقام منهُ فانتقد الباشا على جلالة السلطان بعض الامور واستوثق من الرجل بدهائهِ ومكرهِ ان لايحكي شيئًا . وفي الصباح ذهب الباشا الى السراي يستغفر جلالة السلطان

نادماً على ما وقع منهُ في حالة الذهول وغيبوبة الحس بحضر
فلان وذكر اسم الرجل الذي انتقد امامهُ . فنال العفو
وحسن الرضا باخلاصهِ واعترافهِ على نفسهِ بالذنب من غير
واشٍ وبلغ من عدوهِ الجاسوس اربهُ بغضب جلالة السلطان
عليهِ لسكوتهِ عن تبليغ ما سمع . ونال ادخال السرور على
ذات السلطان بان جلالتهُ قد ضبط الامور بالحكمة والحزم
وملك الالسنة واخاف القلوب واقام منها عليها رقباء حَتَّى
صار المخطئ او المذنب يسبق بالاعتراف على نفسهِ قبل
الوشاة لتخفيف العقاب عليهِ

اللهم ليس في قدرة الرعيَّة الاَّ ان تمد ايديها للاستغاثة
برحمتك ان تبعد عن جلالة السلطان الذي بيدهِ خيرها
وشرها هؤلاء الاشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على انظم
سلطنة في العالم لخربوها في بضعة ايام

ومن الجواسيس طائفة وظيفتها ان تلازم من تؤمر
بملازمتهِ لمراقبتهِ ملازمة الظل فعلى شيخ الاسلام اربعة منهم
لا يفارقونهُ حَتَّى يدخل الحرم فاذا دخل الحرم راقبهُ

المكلفات بهِ من جواسيس النساء . فلهذا تراهُ على صغر سنهِ وشرخ شبابهِ اصفر اللون ضئيل الجسم لايكاد يقاوم النسيم لضعفهِ . وكذلك الصدر الاعظم لا يتحرك حركة ولا ينطق بكلمة الاَّ احصاها كتاب رقبائهِ

ومن هؤلاء الجواسيس من يلازم مركبات اعضاء السلطنة (الشاه زادات) فيركب الواحد منهم حصاناً وراء المركبة على مسافة خمسين خطوة وقد كانوا يلتصقون بالمركبات ويزاحمون الخدم الراكبين وراءها قبل ان يضرب احد الشاه زادات واحداً منهم على تهجمهِ واقدامهِ . فأُمروا ان يبعدوا هذه المسافة. وهناك فريق عسكري اسمهُ اسمعيل باشا وظيفتهُ الَّتي نال بها هذه الرتب العسكريَّة في اقرب زمان هي ان ينزوي وراء الاشجار ويختفي خلف الجدران في الطريق الَّتي يمرّ فيها وليّ العهد رشاد الدين افندي فيكتب كل ليلة تقريراً ويقدمهُ الى الحاج محمود افندي مدير التشريفات الهمايونيَّة يذكر فيهِ ان ولي العهد كان في المنتزه هذا اليوم مقطب الوجه عابساً ولما جاء الى الموضع

الفلاني التفت واطال الالتفات ولما مرّ من المكان الفلاني
اخرج رأسهُ من نافذة المركبة وكان في الطريق رجلان
شاهدهما مرتين في ايام متقاربة في مكان واحد من الطريق.
فتقوم القيامة للبحث عنهما فكم من مظلوم يؤْخذ وكم من
بريء يتهم عند البحث عن الشخصين الموهومين فاذا وصفهما
الفريق مثلاً بان احدهما كان اسمر اللون والآخر مقرون
الحاجبين او ضيق العينين او احمر الوجه وقع البلاء على
من يمشي في تلك الطريق بهذه الصفات. ولما كان الاستنطاق
يتخللهُ اختلاف في القول لما يلحق البريء المتهم من الخوف
والاندهاش ولما يحسب حسابهُ المستنطق من تعلق الشبهة او
التهمة بهِ او نسبة العجز اليهِ وسلب المهارة عنهُ ان لم يثبت
شيئاً ذهب كثير من الناس في طريق القارظين

تقابل الشيخ محمد ظافر في يوم من ايام المواسم في مضيق
من الطريق بمركبة وليّ عهد السلطنة فسلم الامير عليهِ فجمد
دم الشيخ وتعطلت ارادتهُ. ولما افاق ذهب الى جلالة السلطان
ليقص عليهِ القصة فوجد الجاسوس قد سبقهُ اليهِ ووجدهُ

عالماً بالخبر. وعند ما وقعت التهمة على حسن اغا المعين من المابين رئيساً على الخدمة في تكيَّة الشيخ ظافر بأن لهُ اتصالاً بوليّ العهد لم يسلم الشيخ من الشبهة بذلك السلام الذي بينهُ وبين هذه الحادثة سنون واعوام

فاذا كان وليّ عهد الخلافة والسلطنة بهذه الحالة من التشديد والتضييق عليهِ والاشتباه فيهِ والخوف منهُ وابعاد الناس عنهُ ونفي الواصلين اليهِ كيف يكون حالهُ مع الامة وكيف يكون حال الامة معهُ اذا صار في ساعة واحدة سلطاناً عليها. لا ترى منهُ الامة الَّا قلباً نفوراً ملأتهُ الحفيظة ببغض الناس. ولهُ العذر في هذا ممَّا قاساهُ من التضييق والهوان

وهذا الامر هو اعظم مصائب الامة ومن العجيب ان الناس لا ينتبهون للتفكر في هذا الخطب الفادح ولا يقفون عندهُ وقفة المتدبر وشقاؤهم وسعادتهم متوقفان في المستقبل عليهِ لان الخلود محال. ولو نظر العثماني الى ملوك اوربا وما يعاملون بهِ ولاة عهودهم من الاطلاق والحريَّة وممارسة الامور والسياحة في البلاد ومخالطة ارباب السياسة لبكى

على حالهِ ولعلم أن للسلطنة في بلادهِ معنًى غير الذي يعلمهُ الناس في البلاد الاخرى وهو ان السلطنة ارث ورثهُ السلطان ليقضي بهِ حياتهُ في لذة ونعيم وتقضي الامة مدتها معهُ في شقاء وجحيم

يا ملوك البلاد فزتم بنسء الـ
عمر والجور شأنكم في النّساء (١)
غرض القوم متعة (٢) لا يرقّـ
ون لدمع الشمّاء والخنساء

المقالة الثامنة

عيد الجلوس السلطاني

في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازي عبدالحميد خان الثاني بارثهِ الشرعي عن آبائهِ واجدادهِ غياث الامم

(١) النسء والنّساء التأخير في الاجل وطول العمر.
(٢) والمتعة التمتع .

وغيوث الديم اعاد الله يوم هذا العيد الجليل على الامة العثمانيّة وعليهِ بالسعادة والاقبال والعز والاجلال . وهذا اليوم يوم الزينة في دار السعادة وعاصمة السلطنة ومقر الخلافة فيصير دجى ليلها بياضاً مما يظهرهُ سكانها من علائم السرور والابتهاج امام الحكومة السنيّة.وفيهِ تنشر الجرائد العثمانيّة ما يخترعهُ ويدخرهُ اصحابها طول السنة من المعاني الشعريّة وغرائب الاغراق وبدائع الغلوّ في حسن الاحوال ورغد عيش السكان ليسحروا بهِ عقول الرعيّة ويدخلوا بهِ السرور على جلالة السلطان كأَن يقولوا ان في هذه الليلة المقدسة مئتين وخمسين مليوناً من المسلمين فوق كرة الارض يمدون ايديهم بالدعاء الى السماء ليعيش جلالة السلطان على اريكة الملك الى آخر الزمان . ولو اتصلت ايدي هؤلاء العبيد بعضها فوق بعض لقطعت الوف الفراسخ وامسكت بالهلال وحينئذٍ تصير راية الهلال حقيقيّة للسلطنة السنيّة

اما نحن فقد عزمنا ان نذكر الحقائق الخالصة من شوائب المبالغة والغلوّ عن السلطنة العثمانيّة من ذاك اليوم

الى هذا اليوم ليعلم الراعي انهُ فقد نصف سلطنتهِ ومعظم شأنها امام اعين الاوربيين بخيانة الخائنين وغش الغاشين ليتدارك ايدهُ الله الامر في النصف الباقي الذي ابتدئ فيهِ مِن مبادئ الاضمحلال ماكان ابتدأ في ضياع النصف الاول ولتعلم الرعيّة ان ماملكتهُ الدولة بدماء آبائها واجدادها ذهب رخيصاً بهوى شيخ او جهل خصي فتقف مع جلالة السلطان بقلوب صادقة العزمات لتخليص الدولة من ورطتها ناسية مامضى من الخطاء برجاء الخير فيما هو آتٍ

كانت الدولة العثمانيّة يوم جلوس جلالة السلطان على تختها من اجلّ الدول قدراً واعزها شأناً وابعدها صيتاً وارفعها صوتاً وكانت قوة اساطيلها — التي يسكت عنها الآن حياءً وخجلاً — بعد الدولة الفرنسويّة في ترتيب قوى الدول البحريّة وكان سكانها باحصاء الجريدة العسكريّة العثمانيّة اثنين واربعين مليوناً. فكان لها في اوربا عشرة ملايين وفي اسيا اربعة عشر مليوناً ونصف . وفي افريقيا احد عشر مليوناً ونصف. وكان لها رومانيا والصرب بسمة

ملايين. فضاع من اوربا البلغار وبوسنه وهرسك والجبل الاسود وتساليا باربعة ملايين . وضاعت رومانيا والصرب بستة ملايين . وضاعت تونس من افريقيا وهذه مصر بملحقاتها بعشرة ملايين ونصف ولم يبق لها فيها الآَ طرابلس الغرب بمليون واحد . وضاع من آسيا قبرص وقرص وباطوم واردهان بمليون واحد . فالنصف الضائع اكثر من النصف الباقي

كان اول ما فتح القضاء عليها من صحيفة البؤس فتنة البلغار وما احدثتهُ من المذابح كما وقع الآن ببلاد الارمن فقامت الدول تطالب الدولة باجراء الاصلاح كما تطلبهُ اليوم لبلاد الارمن وحددت لها الاصلاح في فصول كما تحددهُ لها في المسألة الارمنيَّة . فدفعت الدولة طلب الدول كما تدفعهُ اليوم بعزمها على نشر الاصلاح عموماً في جميع ولايات السلطنة . وعليهِ بادر جلالة السلطان باصدار الفرمان العالي بتشكيل مجلس المبعوثان ونشر القانون الاساسي الآَ انهُ وجد ايدهُ الله من حاشيتهِ من يثبطهُ عن تنفيذهِ فجمع

مدحت باشا جمعية في الباب العالي من اعيان الاستانة واستشارهم في الجواب القطعي الذي يجب ان تعطيهُ الدولة للدول . فاتفقت تلك الجمعيَّة بأَجمعها ان يرفض طلبهنَّ بالمبادرة الى اجراءِ الاصلاح العام بنشر القانون الاساسي وتشكيل مجلس المبعوثان الصادر بهما الفرمان العالي . واراد مدحت باشا بهذا رفع التردد في تنفيذ الفرمان واغلاق الباب في وجوه المثبطين . فاشمأَزَّ جلالة السلطان منهُ لتعضدهِ بالامة واعتمادهِ على الدول في تنفيذ اغراضهِ فأَمر بنفيهِ الى اوربا قبل اجتماع المجلس ونشر القانون لعدم امكان ذلك بعدهما . ومن هذا علمت الدول ان الامور جارية على غير ظواهرها واثبت لها نفي الرجل الساعي في الاصلاح ما تظنهُ من التلاعب بها فشددت في طلب الاصلاح للبلغار واشتدَّ الاضطراب في الاستانة وهاجت الافكار وكثر القيل والقال . فرأَى جلالة السلطان ان قبول الاعلان بالحرب من روسيا يصرف افكار الامة عن الاشتغال بهِ في الداخل . وبعد قبول الاعلان بالحرب

علمت الدولة انها غير مستعدة تمام الاستعداد لهذه الحرب الهائلة فامر جلالتهُ بجمع مجلس المبعوثان لتلقي الدولة مسئولية الحرب على عاتقهِ وبالفعل اقر المجلس على قبول الاعلان بالحرب . ولما استحصلت الدولة منهُ على غرضها هذا امرت بفضهِ في الحال . ثم ارادت الدولة ان تقلد دولة المانيا في حربها مع فرنسا حيث وضعت المانيا جميع التدابير الحربيّة والحركات العسكريّة في يد المارشال مولتك فصارت جميع الاوامر تصدر من يلديز بالحركات العسكريّة في ميادين الوغى لقواد الجيش العثماني بمشاركة محمود باشا الداماد : وفات السراي ان الخريطات الّتي كانت امام مولتك لاراضي فرنسا كانت اضبط من خريطات الجيش الفرنسوي نفسهِ وان خريطات الدولة كانت تشترى من الاسواق وان محمود الداماد غير المارشال مولتك فكم من حركة امرت فيها السراي بالتقدم وكان الخذلان الوحيّ فيهِ . وكم امرت بالتأَخر وكان في غير ما امرت السداد والصواب . وقد سئل الغازي عثمان

باشا بعد عودتهِ من روسيا في مجلس الوكلاء عن سبب انحصارهِ في بليفنا وعدم خروجهِ منها مع امكان الخروج قبل التضييق عليهِ فأَخرج من جيبهِ تلغرافات تأمره بعدم الخروج . وقد تجاسر بعض الوكلاء ولامهُ على فعلهِ وقال لهُ كان يجب عليك ان تقول يرى الشاهد ما لا يرى الغائب . فاجابهُ بان العسكري يجب عليهِ الطاعة المطلقة للرئيس الاعلى . ويقال ان كثيرًا من هذه الحركات كان مبنيًّا على التنجيم وضرب الرمل والاحلام حتَّى ان بعض المشايخ كان يبشر جلالة السلطان بأَسر امبراطور روسيا . وقد نصح بعض الصادقين جلالة السلطان ان يخرج بنفسهِ الى ادرنه كما كان يفعل اباؤُهُ واجدادهُ في الحروب وكما يفعل الروس فابى الخروج وبعث محمود باشا الداماد مكانهُ ولو كان خرج جلالتهُ لبعث في الجنود العثمانيَّة روح الغيرة وحب التفاني في نصر الدولة ولكن للقضاء حكمًا لا تغلبهُ النصائح والعزائم

وقد قاست الجنود العثمانيَّة ما يفتت الاكباد ويذيب

القلوب لعدم الاستعدادات الحربيَّة في مأكلها وملبسها وعلاج جروحها ودفن قتلاها · وكانت قد تشكلت جمعيَّة الهلال الاحمر لجمع المساعدات من اهل الخير فذهب من تونس الجنرال حسين باشا الى مواقع الحرب بما قدمهُ من مالهِ وقدمهُ اهل تونس بترغيبهِ . ولما رجع الى الاستانة وذهب الى السراي امر جلالة السلطان سعيد باشا الصدر الاعظم الحالي وكان باشكاتب الحضرة السلطانيَّة ان يدعوهُ الى مأدبة سلطانيَّة · فجلس عليها مع سعيد باشا وشرع يحكي على ما رآه وشاهدهُ من الضنك المحدق بالعساكر العثمانية وعريها في الثلوج وجوعها وجروحها والدموع تسابق كلماتهِ على المائدة فقد كان الرجل متفانياً في حب الدولة. ولما قام ليغسل يديهِ وجد الطست الذي قدموهُ لهُ من الذهب الابريز وجميع الآنية منهُ فأَبى ان يغسل يديهِ فيهِ .وقال بعد ماشاهدت ما عليهِ العساكر المسلمون الذين يدافعون عن الاسلام والدولة في مواقع الحرب لا اغسل يدي في بيت الخليفة في هذا الطست . فأَمر جلالة السلطان لما سمع

بكلامهِ ان يخرج في الحال من الاستانة فخرج وما قدر ان يعود اليها بقيَّة عمرهِ لانهُ قال الحق

ولما ضاق الامر على الدولة وظهرت علامات الانكسار ارادت السراي ان تحمل أيضاً على عاتق المجلس المسأُوليَّة في طلب الصلح فأَمرت بجمع المجلس. ولما اجتمع الاعضاء لم يتساهلوا تساهلهم في المرة الاولى بل ارادوا البحث والتدقيق عن الاسباب الَّتي نشأَ عنها الانكسار وطلبوا حضور السر عسكر ليسأَلوهُ. ولما علم من حول جلالة السلطان بهذا الطلب قالوا لجلالتهِ هذه اول خطوة من المجلس في محو سلطتكم المقدسة فاذا تمَّ لاعضائهِ ما ارادوا طلبوا الصدر الاعظم غداً ولا يبعد عليهم ان يتجاسروا بعدها على طلب ذاتكم المقدسة فأمر جلالة السلطان في الحال بطرد اعضاء المجلس ونفي المشاهير من رجالهِ

ولما عظم الخطب وفدح الامر وقرب الروس مِنْ دار السلطنة طلبت الدولة من الدول التوسط لصدهم فلم يجبنَ الاَّ انكلترا فانها لبت الدعوة وارسلت اسطولها في الحال الى الدردنيل

وفي هذهِ الاثناء كان الغراندوق الروسي وصل الى سنستفانو. ولما علم بان انكلترا ارسلت اسطولها سلّم في عقد الصلح وتمت معاهدة سنستفانو وكانت شديدة الوطأة على الدولة. ولما بلغ الانكليز ما تضمنتهُ من الشروط المضرة بالدولة الزمت الدول بعقد موءتمر. فقبلت الدول الاّ فرنسا فانها اشترطت ان لايصير الكلام فيهِ على مصر وسوريا وبيت المقدس . وهذا الذي نبّه الانكليز ان يسبقوا الى مصر

ولما عقد الموءتمر في برلين بعثت الدول بصدورها ووزراء خارجياتها وارسلت الدولة نائباً عنها اسكندر قره تيودوري باشا والي كريت الآن وهو يوناني الاصل مع مشير عسكري فكانت منزلتهُ في الموءتمر دون منازل بقية الاعضاء وصوتهُ اضعف الاصوات فيهِ لانهُ لم يكن صدراً ولا وكيلاً من وكلاء الدولة . وقد اخطأَت الدولة حيث لم ترسل اكبر رجل فيها لموءتمر عُقد لاجلها كما فعلت حين ارسلت في موءتمر باريس عالي باشا نائباً عنها . وما ادراك ما عالي باشا

ومن غريب ما وقع في المؤتمر انهُ اعطى لدولة اليونان تساليا وابيير وما كان لها عضو فيهِ ولا يد في الحرب. وقد قال في هذا بعض رجال الدولة "نحن ارسلنا قره تيودوري باشا نائباً عنا وعن اليونان فادّى وظيفتهُ لنا ولليونان. ثم اعطى الموتمر للجبل الاسود ميناء اسمها دولشينو. فتوقفت الدولة في تسليمها لهُ بعد انفضاض المؤتمر فاضطرت الدول ان تبعث اسطولاً لتسليم تلك الميناء للجبل الاسود. فسلمتها الدولة ولكن بعد حضور الاسطول. ومن هذا واشباههِ لم يبقَ لكلام الدولة وقع في نفوس الدول ولا لتعهداتها اعتبار

وكان لدولة الانكليز اليد البيضاء والهمة العلياء في صدّ الروس عن الدخول في دار السلطنة ومقر الخلافة وفي تأييد التخت العثماني فيها بعد ان عزم جلالة السلطان على مغادرة الاستانة والرجوع الى بورسه مقر تخت آل عثمان القديم ونقل خزائنهُ الى الباخرة بالفعل. وكان لها الفضل في فسخ معاهدة سنستفانو التي كانت الضربة القاضية على

الدولة لو بقيت . وفي عقد المؤتمر الذي تكفل بحفظ املاك الدولة . ولا ينكر هذا الاَّ من سفه نفسهُ

وانتهى المؤتمر على استقلال الممالك الَّتي كانت تحت الدولة وانفصال بلادها عنها وكفالة الدول لها . وقد كان البرنس مترنيخ وزير النمسا المشهور بالسياسة نصح الدولة قبل موتمر باريس ان تجتهد في اصلاح امورها حَتَّى لا تحتاج الى كفالة من الدول فان للكفيل حق التداخل وهذا يضرُّ بها يوماً من الايام وهو ما تقاسيهِ اليوم فصدق قولهُ بعد نصف قرن

ثم انفض المؤتمر بعد خراب البلاد وهلاك الرجال وضياع الاموال ووصول الروس الى اسوار العاصمة واستغاثة الدولة بالدول وتحملها منَّة الانكليز باجابتها دونهنَّ ورجوع نائب السلطنة منهُ بنصف الدولة . كل هذا تسبب عن المحاولة في اجراء الاصلاح في ولاية من ولايات الدولة كما هو حاصل الآن فترتب على ذلك استقلالها واستقلال غيرها . ولابدَّ للدولة الآن ان تقيس الحاضر على الماضي

وان تسرع باجراء الاصلاح قبل ان يصير في نصفها الثاني ما صار في نصفها الاول وان تنجو من عقد موتمر آخر يأتي عليها

ثم ان جلالة السلطان بعد انفضاض المؤتمر وبعد ان اصاب الدولة ما اصابها توجس خيفةً من كل عثمانيّ يصير صدرًا لانكشاف ما اعقبتهُ سياسة الدولة من الغلطات الظاهرة . فاختار ان يأتي بصدر للدولة من الخارج فوقع اختيارهُ على خير الدين باشا فاستدعاهُ مِنْ تونس وكان الباي قد عزلهُ وغضب عليهِ ومنعهُ الاختلاط بالناس . فحضر الى الاستانة . وتقلد منصب الصدارة العظمى واستحلفهُ جلالة السلطان على المصحف والبخاري ان لا يدخل في مؤامرة على ذات السلطان وحلف لهُ جلالتهُ انهُ لا يعزلهُ . فكان اول آماله الانتقام من الصادق باي والي تونس فساعد على عزل اسمعيل باشا خديو مصر الاسبق وبعث لسيدهِ الباي يهددهُ ان تكون لهُ تلك العاقبة قريبًا . فأَسرع الصادق باي بالالتجاء الى الحكومة الفرنسويَّة ليأمن على نفسهِ من شرّ مملوكهِ الذي صار مالكًا ووجدت فرنسا

فرصة لاسكات الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا لها حين التجأ الى قنصلها في ازمير . واشتغلت الدولة بمحاكمة مدحت واصحابهِ واشتغلت فرنسا بادخال تونس تحت حمايتها فنجح الفريقان فيما اشتغلا فيهِ ووضعت فرنسا الحماية على تونس وحصل جلالة السلطان على غرضهِ بنفي مدحت باشا ونوري باشا ورشدي باشا وشيخ الاسلام خير الله افندي ومحمود باشا الداماد الى الطائف

ومحمود الداماد هذا هو الذي حسد السيد ابا الهدى على قربهِ مِن جلالة السلطان حَتَّى قال لجلالتهِ انهُ لا يليق بعظمة السلطنة ان تدخل في امورها السياسيَّة العظيمة (هذا العرب) . فكافأَهُ الله على تحقير امة منها سيد المرسلين أَن نفاهُ السلطان الى بلاد العرب فذلَّ بينهم وهلك فيهم .
وهذه اللفظة طالما استعملها كبراء الاستانة في الشتم والسب وهم يعنون بالعرب الزنجيّ او الكلب الاسود . فمن ذلك ان طبيباً من اطبّاء الحضرة السلطانيَّة في رتبة الفريق كان اسمهُ عارف باشا كان في مجلس حافل وكان يخاصم شخصاً وينازعهُ

حتى وصل الى تهديدهِ فقال وهو محتدّ مغتاظ "ان لم أفعل بك كيت وكيت أكن (عرب)". ما كان ينبغي ان يلفظ بهذا احدٌ في مقر خلافة الرسول العربي" ولكن هذا يضاف الى امثالهِ من سوء الاحوال الّتي نحن في ذكرها

ثم حدث بعد ضياع تونس الفتنة العرابيَّة في مصر فأوصلتها سياسة الطمع الى هذا الحال . لان الدولة ظنت انها وجدت فرصة يمكنها فيها بالدهاء السياسي ان تردّ على الدولة ما ميز السلطان محمود بهِ مصر فاتصلت المخابرة بين المشايخ وعرابي . وكان السيد اسعد قد جاء الى مصر قادماً من الحجاز فتقابل مع عرابي . ولما ذهب الى الاستانة مدحهُ لجلالة السلطان بانهُ الرجل الذي يرجى منهُ الخير للدولة في مصر . وعلى هذا رفضت الدولة ان ترسل عساكرها الى مصر لان المشايخ عرضوا على جلالة السلطان بان ارسال العساكر المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضرُّ بمقام الخلافة سيما امام مسلمي الهند الذين تتهيأ الدولة بواسطة المشايخ على استجلابهم لها في مستقبل الزمان . فبعث جلالة السلطان

درويش باشا للمغفور لهُ الخديوي السابق والسيد اسعد
لعرابي وكان لكل واحد منهما مخابرة مخصوصة مع جلالة
السلطان بتلغرافات الارقام . الاَّ ان السيد اسعد لم يجد
من عرابي في المرة الثانية ما وجدهُ في المرة الاولى من
الاكرام لاعتمادهِ على الشيخ ظافر . ولهذا كتب في البيانامة
الَّتي تقدمت من الصدارة الى المابين بطلب فرمان العصيان
ان من جملة ما صدر من سيئات عرابي انهُ يحقر آل البيت
ولا يعتني بهم

والخلاصة ان المسأَلة المصريَّة وقعت في ايدي المشايخ
ويد بهرام اغا وكان الباب العالي لا يعلم منها الاَّ المخابرات
الرسميَّة على حسب العادة الجارية . فلما امر جلالة السلطان
ان يعقد مجلس من رجال الدولة في المابين تحت رئاسة
الصدر الاعظم سعيد باشا للنظر في المسأَلة المصريَّة قال احد
رجال الدولة للصدر كيف نتكلم في مسأَلة لا نعلم منها شيئاً
لان الدولة امرت ان الجرائد لا تكتب عنها حرفاً واحداً
ومنعت دخول كل جريدة اجنبيَّة فيها ذكر مصر . قال لهُ

الصدر ما المسؤُول بأَعلم بها من السائل

فهل تترك انكلترا مصر بعد ان سمعت ان فرنسا اشترطت عدم ذكرها في المؤتمر. هل تفوتها بعد ان علمت ان فرنسا استحصلت على سكوت الدولة عن تونس بتسليم مدحت باشا اليها . هل تأمن على مصر بعد ان رأَت انها وقعت تحت ايدي المشايخ. هل تقتنع بتركها بعد ان خلصت الدولة من مخالب روسيا

ثم ابتدأَ في هذه الايام في النصف الثاني من السلطنة ما ابتدأَ في النصف الاول منها طبق الاصل كما تراهُ في الاحوال الحاضرة وكما يظهر لك من مقالاتنا السابقة فلا نطيل عليك الكلام باعادتهِ ولا ندري ما تأْتي بهِ الايام

أَعرضوا عن مدائح وتهانٍ   فالمراثي أَولى بنا والتعازي

نسأَل الله ان يوفق جلالة السلطان الى خير الامة والدولة ويبعد عنهُ الخائنين الغاشين بفضلهِ وكرمهِ آمين

المقالة التاسعة

الجواسيس

من نوادر الوقائع ان رجلاً من طرابلس الشام اسمهُ عبد الحميد حضر الى الاستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدليّة في بلاد الدولة وكان لمنيف باشا معرفة بهِ فجاءَ اليهِ لعرض العبوديّة (على اصطلاح اهل الاستانة) فقال لهُ الباشا متى جئت وفي اي مكان نزلتَ . قال الرجل جئت اليوم ونزلت في يلديز . قال لهُ الباشا كيف ذلك — وقد ظن انهُ نزل في السراي السلطانية — قال في نزلْ بقرب السركجي اسمهُ يلديز (النجم) . فوقف منيف باشا على رجلهِ وقال لهُ قم ولا تجلس هنا حتّى تنتقل من هذا النزل الى آخر . فوقف الرجل مبهوتاً لا يدري سبب هذا الامر الحتم . فقال لهُ الباشا أَنسيت ان اسمك عبد الحميد واسم هذا النزل يلديز فايّ قارعة من قوارع الدهر واي بائقة من بوائق الزمان تريد ان تصبّ على رأسك ورأسنا .

فكاد الرجل يصعق من هذا الاتفاق الذي لم يرزق التحرز منهُ وخرج يشتم اباهُ وامهُ . ولما وصل الى النزل وجد نفرًا من البوليس ينتظرونهُ — ولو كان هذا الارصاد والاسراع في مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل — فاخذوهُ الى الاستنطاق وما خلص من ضيق الخناق حتَّى خفَّ عقلهُ وجيبهُ معًا وبقي في الاستانة مدة ببركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعدًا

لا يعجب القارئ اذا رأى ان منيف باشا ناظر المعارف الفاضل الحكيم بذل في تلك الحادثة من العناية والاهتمام فوق ما تستحق . لانهُ أُصيب من لفظة "يلديز" بشهاب ثاقب كاد يقضي عليهِ . وذلك انهُ الف كتابًا واتفق ان ورد في الكتاب ذكر الحباحب وهو حشرة يضيء ذنبها في الليل كالنجم فعبر عنهُ منيف باشا بحيوان يلديز (ومعنى يلديز النجم) فطار الجواسيس الى السراي السلطانيَّة وقدموا التقارير السريَّة بان منيف باشا يعرض بجلالة السلطان في قولهِ عن الحباحب "حيوان يلديز" على سبيل التورية فعزل الباشا في

الحال وبقي في نحوسة نجمهِ خمس سنوات مغضوباً عليهِ لهذه الكلمة الَّتي ما خطر ببالهِ غير معناها الحقيقي . ولكن الجواسيس اقدموا على حجب السلطنة يهتكونها بنقل هذه المفتريات ولو كان امامهم عقاب لخافوا من الهجوم على عرش الخلافة وسرير السلطنة يقرعونهُ بهذه التأويلات الَّتي يرجع العقاب فيها على المؤَوّل والمبلغ

ومن العجائب قدرة بعضهم على قلب الحقائق فيجعل المجرم بريئاً والبريء مجرماً بالكرامة او الاستدراج او بقوة السحر او بالتنويم او بما لاندري . فمن ذلك ان جاسوساً كتب الى ناظر الضبطيه ان مصطفى رشدي افندي مِنْ اعضاء مجلس المعارف عندهُ اوراق مضرَّة بالسلطنة والسطان . فهجم ناظر الضبطيَّة بالبوليس على بيتهِ واخرج منهُ احمالاً مِن الكتب والاوراق واحضروا ترجمان الباب العالي لترجمتها في الحال فوجدها حمَّالة الجرائم والذنوب . فامر بحبس مصطفى رشدي فاستشاط السيد اسعد غضباً لانهُ من شيعتهِ والمحسوبين عليهِ واشتكى لجلالة السلطان من ناظر الضبطيَّة

ورماهُ بالطيش والعجلة . وكان ناظر الضبطيةَّ في تلك الاثناء
يبعث الى جلالة السلطان ما يترجمهُ المترجم من تلك الاوراق
ساعة بعد ساعة والسيد اسعد لا يعلم بما فيها . وقد تضمنت
مِن الطعن على مقام الخلافة وعلى جلالة السطان مالا يبلغهُ
شيعيٌّ من الطعن والقدح في الوليد بن يزيد الاموي .
وتضمنت اسرارًا وفظائع عن الحجاز وافعال الشريف يتأَلم
لها الانسان مسلماً كان او غير مسلم . هذا وناظر الضبطيةَّ
يضيق عليهِ الحبس كلما اطلع على ترجمة ورقة من اوراقهِ .
فلما علم السيد اسعد بضمون تلك الاوراق ضاق ذرعاً
وسقط في يدهِ لمدافعتهِ عن المجرم امام الحضرة السلطانيةَّ.
فادركهُ ليث الكتيبة في المزدحم السيد ابو الهدى وقد سألهُ
احد أصحابهِ عن المخلص من هذا المشكل فقال لهُ هوّن
عليك نحملهُ كلهُ على كاهل كامل باشا الصدر فما اقدرهُ على
الافتراء وما اصبرهُ على النار فلم يشعر ناظر الضبطيةَّ الّا والارادة
السنيةَّ صادرة باطلاق مصطفى رشدي والاحسان عليهِ بخمسين
ليرة وارجاعهِ الى وظيفتهِ . فتعجب الناس وحق لهم العجب

والاستغراب . ومن الغريب ان ناظر الضبطيَّة اخذ الارادة بيدٍ وكان في اليد الاخرى ترجمة البيتين المشهورين في ذم موسى الهادي خليفة يزني بقمامة الخ . وكم من ابيات كتبها رشدي من هذا القبيل للاستشهاد بها على الاحوال الحاضرة وكم من كلام لهُ على الارادات وسقوط قيمتها لكثرتها . فمن ذلك قوله "ان الارادة اصبحت كرجل الجرادة" وكثير من هذا الهذيان الذي لو قالهُ غيرهُ ممن ليس لهُ ظهر لحلت بهِ العبر . ورشدي هذا من الآلات التي قلعوا بها كامل باشا من الوزارة فان السيّدين استحصلا على ارادة من جلالة السلطان لمنيف باشا ناظر المعارف بتوظيف مصطفى رشدي في المعارف وهما يعلمان ان منيف باشا لا يقبل الرجل لما يعلمهُ من خفة عقلهِ وتهورهِ . فردَّ الارادة بان ليس في المعارف محل خالٍ لتوظيفهِ فتقدم في الحال تقرير بان منيف باشا قال لرشدي حين قابلهُ قد جاءَت وريقتكم (بالتصغير) يعني الارادة وليس لكم محل هنا . فجاءَ ذلك مصدقاً لما كانا يشتغلان فيهِ من نسبة كامل باشا والذين معهُ من الوزراء

للاستهانة بالارادات السلطانيَّة وبهذا وغيرهِ عزلت الوزارة التي حفظت شأن السلطنة ست سنوات

يا محب الاصلاح في زمن اصـ ـبح فيهِ الاصلاح وهو بغيض

كيف النجاة بما بقي للدولة والخلاص بهِ من جواسيس هريتة الاشداق لالتهام الرُّشا جهنمية البطون لهضم السحت مبسوطة الايدي لحصاد الاثم . باسمة الثغور لفوادح الظلم . مقبوضة النفوس عن فعل الخير . كُمهِ العيون عن رؤية الحق . مزورَّة الجوانب عن قيل الصدق . محصورة المساعي في افانين الشر . مشرئبة الاعناق لهتك العرض . سابقة الاقدام لمورد الافك . طائرة الصيت في عداوة العدل . مطويَّة الجوانح على مخزيات الغش

لو عاين الدجَّال بعض فعالهم لانهلَّ دمع الاعور الدجَّالِ

ماذا اقول ويقول القائلون وماذا اكتب ويكتب الكاتبون في قوم عزلٍ من كل مقاومة ومنازلة ومكافحة ومساجلة الاَّ من سلاح الايمان بالله تارة وبالطلاق اخرى

واكذب ما يكون ابو المثنَّى اذا آلى يميناً بالطلاقِ

وماذا أقول في قوم لو وقع في ايديهم صداق البتول عليها السلام لاشتروا بهِ معاول لهدم الكعبة ان لزم هدمها لاحكام مكيدة من مكايدهم او تصنيع دسيسة من دسائسهم في غرض واحد من اغراضهم . قد اتخذوا اسم الخلافة احبولة لدفع المنفعة وجلب المضرة على الدولة فنجحوا بتمالوءهم وشد بعضهم ازر بعض

ناموا في حلم جلالة السلطان وغطوا فيهِ غطيطاً وظنوا ان القضاء نام معهم وما هي الاَّ لفتة من لفتات الخليفة او عزمة من عزماتهِ تأتي عليهم فيبطل السحر والساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى

قال بعض الفضلاء من وكلاء الدولة ان السلطنة قد فقدت جلال شأنها بيمين زيد وسبحة عمرو ومسواك بكر. فقال لهُ رجل ويصلح امرها شيءٌ واحد تصدر بهِ ارادة واحدة وهو حريَّة المطبوعات · وقد حصل ولله الحمد فان فاتت حريَّة المطبوعات العثمانيين في الاستانة فما فاتتهم في مصر وصاحب الميزان يقول في ميزانهِ اليوم ما يقول

وهانحن نقول ونصيح ونكتب وننشر ونبعث الى كل وجهة بكل وسيلة حتى نبلغ جلالة السلطان ما المّ بدولة آل عثمان بكيد الكائدين ومكر الماكرين وشعوذة المشعوذين وغش الغاشين . ولا يعجزنا ان نبعث بآلة حفظ الصوت الى البيت الحرام والى الروضة الشريفة فننقل بها كلام المظلومين الذين ملأُوا حجورهم من الدمع في تلك البقاع الطاهرة ليسمعهُ جلالتهُ فيرحم جيران بيت الله من قوم جعلوا الحجاز مقاطعة لهم واستحلوا دم الحجاج في الحرم . ولا يبعد عن العقل ان جلالة السلطان يكذبهم في أيمانهم مرة واحدة فيقف على زورهم وبهتانهم ودسائسهم ومكرهم ويرفع الدولة بيدهِ الطاهرة من وهدة السقوط ويحفظ الامة من عاقبة القنوط ويرحم المظلومين من شكاوى قد ضجَّ من طول ما استُعمل فيها المخفوض والمرفوع

وقد تمادى هؤلاء الجواسيس في غيهم لما لم يردعهم قرآن ولم يزعهم سلطان فخرقوا سياج الادب ومزقوا حجب

العظمة وسرادقات الجلال فنقلوا عن جلالة السلطان الى افراد الرعيَّة ما ازالوا بهِ هيبة السلطنة عنهم ونقلوا الى جلالة السلطان عن الرعيَّة عبارات لاينطق بها عثماني يحب وطنهُ وسلطانهُ . وانك لتجد الداخل الى الاستانة مملوءَ الصدر بحسن الآمال فرحاً مسروراً داعياً لجلالة السلطان بالنصر والظفر مكذباً لجرائد الاحرار ان كان من مصر معتقداً فيها الزور والبهتان فاذا اقام فيها عشرين يوماً تغير حالهُ وصدَّق ما كذَّب آنفاً واشتغل لسانهُ بالاستعاذة والحوقلة . اما اذا اجتمع بواحد ممن ذكرنا يوماً واحداً فانهُ يخرج من الاستانة يائساً من كل خير ومن كل اصلاح محتقراً ما استعظم مستصغراً ما استكبر مسترخصاً ما استغلى كارهاً ما احبَّ فلا حول ولا قوة الاَّ بالله



المقالة العاشرة

جلال الخلافة وجمال السلطنة

ان الممالك تختلف في تشييد عظمتها اختلافاً كبيراً فمنها ما تختاره الحديد الذي قال الله تعالى فيهِ "وانزلنا الحديد فيهِ بأسٌ شديد ومنافع للناس" فتبني المملكة عليهِ صرح مجدها وتصنع منهُ الاساطيل والاسلحة والمدافع والمعاقل والحصون والآلات البخاريّة والطرق الحديديّة وتصنع منهُ ما تصنع من انواع القوى فيهابُها اعداؤُها في الخارج. فان قالت فقولها حتم وان اشارت فاشارتها حكم. ولا تزال بتلك القوى تتجه جميع اجزائها لقصدٍ واحد هو اقناع الاجنبي بعظمتها وتسليمهُ بمنعتها فأَميرها ووزيرها ونائبها وتاجرها وعالمها وجاهلها وصانعها وزارعها يعملون لهذه الغاية كل على مقدورهِ وطاقتهِ ولا يأْنف الامير ان يعمل لها كما يعمل الاجير. وهذا عمر رضي الله عنهُ قد أَنزل نفسهُ في كثير من الاحوال منزلة واحد من افراد الامة

للسعي وراء ذاك الغرض فقد كان يخرج بنفسهِ لما جاءهُ الخبر بنزول رستم الى القادسيَّة فيستخبر الركبان كل يوم عن اهل القادسيَّة منذ حين يصبح الى انتصاف النهار ثم يرجع الى اهلهِ فلما جاء البشير بالفتح لقيهُ كما يلقى الركبان من قبلُ فسأَلهُ فأَخبرهُ فجعل يقول يا عبد الله حدثني فيقول لهُ هزم الله العدو . وعمر يحث معهُ ويسأَلهُ وهو راجل والبشير يسير على ناقتهِ. فلما دخل المدينة اذا الناس يسلمون عليهِ باسمهِ بأَمرة المؤمنين ويهنئونهُ . فنزل الرجل وقال هلاَّ اخبرتني يا امير المؤمنين رحمك الله وجعل عمر يقول لا عليك يا ابن اخي لا عليك يا ابن اخي

ومن الممالك ما تختار الذهب وترى فيهِ طريقاً مختصراً لبلوغ الغاية الاَّ ان هذه يختلف مقصد بيت الملك فيها عن مقصد الامة فيشتغل الممسكون بزمام الامور في اقناع الرعيَّة بعظمة الدولة والسلطنة ولا همَّ لهم الاَّ التسليم بالابهة والجلال من الداخل فيبهرون أَلباب الرعيَّة بجعل ما تتغالى في تعظيمهِ وهو الذهب حقيراً في استعمالهم ويظهرون لهم من

انواع الزخرف والزينة ما يذهلهم عند رؤيتهِ فيعتقدون في الدولة بلوغ الغاية من العظمة ويعتقدون في الاجنبي انهُ يرى ما يرون فيها . ولهذا تجد كثيراً من الناس يظهر على وجوههم البشر ويصغون كل الاصغاء اذا سمعوا رجلاً يحكي عن خزينة الامتعة في الدولة وان فيها تخت السلطان الغوري المرصع باللؤلوء والياقوت وركاباً من الزمرد اهداهُ محمد علي الى السلطان محمود وكذا وكذا من نفائس الجواهر وقد لا تجد منصتاً لمن يحكي عن ترسانة لندن مثلاً. واوضح من هذا انك تجد بعض القارئين لهذه المقالة يشتغلون بالسؤال عن ذلك الركاب الزمرد ولا يلتفتون إلى قصة المغربي في آخرها

ولما كانت السلطنة العثمانيّة قد فاقت جميع الدول الاوربيّة في الابهة والفخار باعظم مقتنيات الزينة رأينا ان نبين مظاهر الجلال ومواسم الاحتفال ومواكب الابهة واحداً واحداً : فمنها موكب صلاة الجمعة الذي يقصدهُ القاصدون من اوربا لرؤيتهِ

ما قيصرُ في موكب انتصارهِ ولا الاسكندر في يوم افتخارهِ استغفر الله بل ما سعد قادماً من القادسيَّة ولا المعتصم قافلاً من عموريَّة املأُ للقلوب مهابةً ولا للعيون بهاءً من رؤية جلالة السلطان يوم الجمعة في موكبهِ

في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالاً وفرساناً من اطراف الاستانة الى بشكطاش عشرة آلاف او يزيدون فينتظرون في طريق السراي السلطانيَّة صدور الارادة السنيَّة بتعيين المسجد . وهي عادة جارية الى اليوم وان كان المسجد الحميدي قد اختص بصلاة جلالتهِ دون سواهُ . فاذا صدرت الارادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد امام باب السراي . واصطفت صفوفاً مضاعفة بعضها وراء بعض . وفي هذه الاثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشايخ والاجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من عليَّة قومهم الوافدين على الاستانة في قاعة الجيب الهمايوني المطلة على تلك الساحة التي لايسمع السامع فيها قيلاً ولا صهيلاً الاَّ صليل الاسياف

وترديد الانفاس هيبةً واجلالاً وانتظارًا واستقبالاً لاشراق نور الحضرة السلطانيَّة . فاذا حان وقت الصلاة اشرقت المركبة السلطانيَّة المذهبة كالشمس ضياءً من مطلع السراي تحمل الامام نائب الرسول صلى الله عليهِ وسلم ويجلس امامهُ الغازي عثمان باشا . والمشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاةً خشَّع الابصار ترهقهم ذلةً من جلال تلك العظمة الاماميَّة . وهم في غير هذه الساعة اكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبرًا وجبروتاً وكلهم في امواج الملابس الذهبيَّة يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار وتأخذ بالالباب . حتى ان الناظر ليكاد يوالي الحمد لله تباعاً على ما منحهُ للدولة من عديد الرجال الصادقين في خدمة الامة والملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين لولا ما يعتريهِ من الاشتباه فيهم . والنشان عنوان كتبتهُ الدولة ووضعتهُ على صدر حاملهِ شهادةً منها للناس ببيان ما هو مكنون وراءهُ من فضائل الغيرة والحميَّة فاذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون

في القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعهِ على زجاجة الخل عنوان ماء الورد

ثم تسير المركبة بالعزّ والاجلال والسعادة والاقبال تحسدها الكواكب وتحفظها المواكب حتى تصل الى السلم السلطانيّة من المسجد فيدخل جلالتهُ على صف المشايخ واولهم شيخ الاسلام فالسيد فضل باشا العلوي فالسيد اسعد فالسيد ابو الهدى فالسيد جمال الدين الافغاني فناظر الاوقاف فبعض الخاصة من الوزراء والمشيرين فيشير جلالتهُ اليهم بالسلام بيدهِ الكريمة وفي بعض الاحيان يكلم شيخ الاسلام كلمة او كلمتين تشريفاً لقدرهِ وربما ميز بعض الواقفين بابتسامة . ثم يصعد الى المكان المخصص لصلاتهِ فيصلي فيهِ وحدهُ وصفوف العساكر العثمانيّة واقفون في تلك الساحة ينتظرون تشريف جلالتهِ للسراي بعد تأدية الصلاة

اما المراقبة والمحافظة على المسجد من جهاتهِ الستّ فلا يقدر على وصفها واصف . وانك لترى على كل نافذة من نوافذ المسجد حافظين غليظين يمنعان كل قاصد للنظر

منها مهما بلغ من القدر والشأن . وعلى سطح المسجد عشرات من العيون والارصاد . ولا يدخل المسجد مصلٍّ الاَّ اذا فتشهُ المراقبون تفتيش اللص سرق فص خاتم فاذا دخل المسجد جلس عن يمينهِ جاسوس وعن شمالهِ جاسوس ومن خلفهِ اثنان وكلهم مستوفزون للوثبة عليهِ . فاذا اراد المسكين ان يصيح بانهُ مظلوم ضرب اولئك الاعوان على فمهِ قبل ان يلفظ الميم ورفعهُ الاربعة مطويًّا كطيّ السجل للكتاب واوصلوهُ الى سجن الاستنطاق . وهناك يسلّ المستنطق خيط نخاعهِ بعد ان جمع الاشقياء بين اضلاعهِ . ولهذا قل الواردون على الجامع للصلاة من الخارج نخلا للجواسيس والاعوان . وان الخطيب ليتجنب في خطبتهِ كل آية وكل حديث فيهِ ترغيب في العدل او تنفير من الظلم او إيماء الى موعظة من نهي عن منكر او امر بمعروف . ولا يدور في تلك الخطبة من كل جمعة الاَّ حديث واحد اختاروهُ لبعدهِ عن كل تأويل وهو " ان الله جميل يحب الجمال " فاذا جاء عيد الاضحى استبدلوهُ

بحديث آخر وهو قوله "سمنوا ضحاياكم" وهكذا في مساجد الاستانة لا يخطب الخطباء الاَّ بهذين الحديثين

فاذا قضيت الصلاة خرج جلالة السلطان بالهيئة الَّتي دخل بها وصاح العساكر الواقفون في انتظار جلالتهِ بالتهليل والتكبير والدعاء وانفض الجمع وذهب العساكر كما جاؤُوا الى مواضعهم

وهنا نذكر حكاية : مرّ على الاستانة من اقصى الغرب رجل من العلماء فيهِ خشونة البادية ولما رأى الموكب السلطاني ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لا يصلون في وقت الصلاة سأل احد مشايخ الحضرة السلطانيّة بعجرفة لا تليق بادب الخطاب مع قاضي عسكر روم ايلي بقولهِ: يا شيخ الاستانة أيجوز في الشريعة ان يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع وقد سمعوا اذان الجمعة وشهدوا الناس يصلونها ولا يجسر احد منهم ان يصليها للحكم القاهر عليهم . سبحان الله يا شيخ الاستانة قد اصبح حكم العبد فوق حكم الرب قال الله تعالى "يا ايها

الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر
الله وذروا البيع ذالكم خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت
الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا
الله كثيراً لعلكم تفلحون" وقال الضابط للعساكر قفوا هنا
ولا تصلوا فاطاع العبدُ العبدَ وعصى العبدان الرب .
أتريدون نصراً من الله بعد هذا والله يقول" ان تنصروا
الله ينصركم ويثبت اقدامكم" وان خذلاننا لدليل عصياننا .
ان الله لم يبح للمسلمين ترك الصلاة في حال من الاحوال
وقد عرفنا الله كيف نصلي صلاة الخوف فقال تعالى يخاطب
الرسول" واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان
تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ان
الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً * واذا كنتَ فيهم فأقمتَ
لهم الصلاةَ فلتقم طائفةٌ منهم معكَ وليأخذوا أسلحتهم فاذا
سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفةٌ أُخرى لم يصلُّوا
فليصلُّوا معكَ وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ودَّ الذين كفروا
لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة

ولا جناح عليكم ان كان بكم اذًى من مطر او كنتم
مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله اعدَّ
للكافرين عذاباً مهيناً * فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله
قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فأَقيموا الصلاة ان
الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " وان الائمة
نوابُ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم في كل عصر قوَّام بما
كان يقوم بهِ فكان الخطاب لهُ متناولاً لكل امام يكون
حاضر الجماعة في حال الخوف فعليهِ ان يؤمهم كما امَّ رسول
الله صلى الله عليهِ وسلم الجماعات الَّتي كان يحضرها . يا شيخ
الاستانة ان الله امر النبي ان يقسم المؤمنين طائفتين تصلي
واحدة وتحرسها أُخرى في ساعة الفزع الاكبر والدماء
سائلة والقلوب طائرة والالباب طائشة والعدو بالمرصاد
يرصد الغرة وينتهز الفرصة والرسول واقف لتشييد الدين
ولا ارى ياشيخ الاستانة عندكم شيئاً من الخوف يستوجب
تقسيم المسلمين طائفتين فكيف ساغ لكم ان تنهوا المسلمين
جميعاً عن الصلاة عند اقامتها امامهم

قال لهُ شيخ الاستانة هذه سياسة فيها ارهاب العدوّ ألا ترى للاجانب قد احمرت وجوههم عند رؤية هذا الموكب السلطاني. قال الشيخ المغربي انا اعلم شيئاً مِن الشريعة والشريعة فوق السياسة فاذا كان لديكم في هذا مخلص شرعي فانشروا بهِ رسالة على المسلمين حتَّى يطمئنوا على دينهم الذي وضعوهُ في ايديكم وان لم يكن عندكم مخلص شرعي فلا تكتموا السلطان حكم الله ولا تغيروا اعتقاد المسلمين في تقواهُ . وان سكتم عن الاثنين فالاثم عليكم لا على السلطان . فتغير وجه شيخ الاستانة وقال للفقيه المغربي ان بقيت في الاستانة الى الغد يا فضولي اكلتك الاسماك . فخرج الرجل وهو يقول والله ما تساهلتم في هذا الامر العظيم الذي يشق قلب الدين واخفيتموهُ عن السلطان الَّا لتحفظوهُ للطعن عليهِ عند كفران نعمتهِ وخروجكم عليهِ . فلما سمع شيخ الاستانة همهمة الرجل بهذا الكلام سعى سعيهُ فاحاطت بالرجل مكايد الجواسيس وحفت بهِ دسائسهم فطلب النجاة من دار الخلافة وخرج مع البازي عليهِ سواد

نصف رمضان

في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك من كل سنة تهبط العظمة الامامية هبوط الجلال والرحمة من سماء يلديز الى السراي القديمة الّتي كانت مشرّفة بسكن السلاطين من آل عثمان في قديم الزمان . وهذه السراي واقعة على البوغاز من جهة ومتصلة بجامع آيا صوفيا من جهة وبالباب العالي من جهة أُخرى وهي تحتوي على المخلفات النبويّة مستودعات الخلافة والسلطنة الّتي حفظها السلاطين حفظ الروح ووضعوها بجانبهم والقرب منهم مبالغة في حفظها وتكريمها اولاً وتبركاً بها ثانياً . لا زالت لهم وفيهم ما مرّت الغداة وكرّ العشيّ

وقبل ذكر هذا الموكب الجليل والمحفل الشريف نذكر ما تتخذهُ السلطنة من اساليب الاحتياط لهُ وافانين التيقظ لسلامتهِ من شوائب ما يكدر الصفاء على زعمهم . والله يعلم ان الامة العثمانيّة اشد حبًا لسلطانها واحرص على حياتهِ منها على حياتها ولكن الجواسيس يجدون كل يوم نوعاً من الفتنة

لابعادها عن سلطانها وابعاد سلطانها عنها

قبل ميعاد الاحتفال بشهر او اكثر تشتغل نظارة الضبطيَّة ونظارة الجمارك ونظارة العسكريَّة ونظارة البلديَّة وسفارات الدولة في اوربا والمشايخ في الاستانة والجواسيس الخارجيَّة والداخليَّة لهذا اليوم المعلوم

فوظيفة نظارة الضبطيَّة فيهِ ان ترتب الجواسيس من الرجال والنساء ليدخلوا البيوت المسكونة الواقعة على جانبي الطريق بأوهى المناسبات ليراقبوا حركات سكانها وزائريها في هذا اليوم . ثم تأخذ مفاتيح البيوت الخالية الواقعة على ذلك الطريق لتأمن ان يكمن فيها كمين سوء ثم تملأ السجون بعباد الله الذين يشتبهُ الجواسيس فيهم واكثرهم من اصحاب الدعاوى والشكاوى فتلتقطهم بتعللات ملفقة لتأمن غوغاءهم في ذلك اليوم على زعمها

وتصرف نظارة الجمارك مجهودها وتبذل مقدورها في امعان البحث والتنقيب عن جميع الواردات الى الاستانة خشية ان يفلت شيءٌ من الديناميت . وكثيرًا ما تؤخر

تسليم البضائع لاصحابها حتى ينقضي ذلك اليوم

وتشتغل نظارة البلديَّة بفرش الطريق بالحصباء والرمل وهي تُسرُّ البحث في الارض تحت ظاهر هذا العمل عما تظن ان يخبأ من كرات الديناميت . ظنٌّ باطل ورأي عاطل ولكن الجواسيس يعلمون الناس الخيانة وارتكاب المفاسد

وتشتغل نظارة العسكريَّة بالمحافظة على الكوبري فيبيت الضباط والعساكر في الصنادل تحتهُ ليلة ذلك اليوم المعهود وتمتد فوقهُ الادارة العرفيَّة تلك الليلة فلا يعبر عليهِ احدٌ الاَّ أُحيط بنظراتهِ ولفتاتهِ . وقد وقع مرةً من رجل عبر عليهِ شيءٌ فانحنى لتناولهِ فاكبَّ عليهِ الجواسيس والاعوان واخذوهُ اخذ العزيز الذليل ولهذا ترك الناس المرور عليهِ في تلك الليلة

وتشتغل سفارات الدولة في اوربا بالاستخبار عن الفوضويين ان كانت افكارهم قد توجهت نحو الشرق او سافر احد منهم اليهِ

ويشتغل المشايخ ونعم – ما يشتغلون لو اقتصروا عليهِ – بقراءَة الاحزاب والاوراد والدعاء والابتهال الى الله في تلك الليلة المباركة ان يحفظ للاسلام خليفتهُ

وتراقب الجواسيس جميع المراقبين لهذه الاعمال فلا يمر ذلك اليوم الَّا وجميع المشتغلين بهذه الاشغال نيام من المتاعب والمشاق الَّتي تحملوها . وما ظهر عنها الى اليوم خيانة من الامة الصادقة تدعوهم الى تحملها دائماً ولكن النياشين والرتب والاموال مسببة عن هذه الترهات فكيف يتركون السبب فيحرمونها

وقد وجد بعض الدهاة من اصحاب الحاجات طريقاً قريباً لقضاء اشغالهم فاخذوا يبعثون قبل يوم الخرقة بيوم او يومين تلغرافات شديدة المآل من مكري كوي في ضواحي الاستانة الى جلالة السلطان نفسهِ بعبارات تشف عن اليأس والضجر فلا يلبثون ان يدعوا الى السراي للافطار والاكرام وقضاء حوائجهم ببركة ذلك اليوم العظيم

فاذا كان الضحى من يوم تلك الليلة اصطفت العساكر

العثمانيَّة كالبنيان المرصوص من يلديز الى السراي القديمة صفين على جانبي الطريق — والمسافة بين يلديز وبينها تزيد عن مسير ساعة — وخرج اهل الاستانة من الرجال والنساء والاولاد للتبرك برؤية الامام حافظ امانات الرسول صلى الله عليهِ وسلم فيقفون وراء صفوف العساكر والجواسيس منبثون بين ظهرانيهم وفي طيَّات اجتماعهم . ولا يزال جميع الواقفين في انتظار الموكب السلطان حتَّى يمر بهم وفي وسطهِ المركبة المذهبة تحمل جلالة السلطان وقد احاط بها وازدحم حولها الياوران ازدحام العطاش الهيم على المورد العذب فلا يدعون فرجةً ولا خصاصاً للامة المحرومة ان ترى سلطانها وامامها . وما ترى الامة الاَّ لمعان الذهب واشعة الجواهر واشخاص الياوران تطير بها الجياد السبق حول المركبة

واجلُّ علم البرق فيها انها　　مرَّت بجانحتيهِ وهي ظنونُ

فيرجع الناس والاسف ظاهر على وجوههم لعدم تمكنهم من رؤية الامام واذا سألت كثيرًا من اهل الاستانة عن

سيماء جلالة السلطان نكسوا رؤوسهم حياءً لعجزهم عن وصف ما لم يروا وقد حرمهم جلالتهُ ايضاً ان يروا صورتهُ بالفوتوغرافيا . اما الصور التي نراها في ايدي الناس بدعوى انها صورة جلالتهِ فليست منها في شيءٍ

هذا ثمر ما غرسهُ الجواسيس ونتيجة ما قدموهُ . وقد قالت زوجة احد سفراء النمسا في الاستانة لجلالتهِ اني ارى ان الامة العثمانيَّة تحب جلالتكم وتتمنى رؤيتكم فلو احسن عليهم جلالة السلطان بالخروج عليهم في بعض الاحيان لكان ذلك عندهم اجلَّ احسان من لدن جلالتكم . فشكرها جلالة السلطان على كلامها ولكن أقسم الجواسيس انها تقول هذا لمآرب ومقاصد

وعلى ذكر حب الاهالي الذي شهدت بهِ هذه السيدة لهذا البيت الرفيع بيت الخلافة والسلطنة نذكر ما وقع للمرحوم السلطان عبد المجيد فانهُ خرج يوماً لصلاة الجمعة في احد مساجد الاستانة فوجد في انتظارهِ كثيراً من العساكر على خلاف العادة فسأل السر عسكر عن اجتماعهم فقال انهُ بلغنا

ان بعض السفهاء يقصدون تكدير الصفاء بالاجتماع والغوغاء في الطريق . فقال الخليفة أرجعوا العساكر الى مواضعهم حالاً ثم التفت الى من حولهُ من الرجال وعيناه تتوبان عن لسانهِ في الانتهار وقال اذا كانت الامة لا تريد ان اكون حاكماً عليها أأقبل انا ان تكون محكومة لي . وبعد تأدية الصلاة امر ان لا يتبعهُ الاّ ياور واحد وطاف بنفسهِ جميع شوارع الاستانة فكان الناس يقعون على مواطئ فرسهِ يقبلونها . وما رأى الراؤون يوماً في الاستانة املك لمجامع القلوب واشرح للصدور من ذلك اليوم . هذا الكلام لا يصدر الاّ عن همة ملك في سلسلة آبائهِ ثلاثون سلطاناً ملأوا الارض بعظمتهم ورهبتهم . وكنا نسمع عن جلالة السلطان عبد الحميد كلاماً مثلهُ او اعزَّ منهُ لو اراحهُ الجواسيس من كيدهم

فاذا وصلت المركبة السلطانيَّة الى سلم السراي صعد جلالة السلطان . والصدر الاعظم وشيخ الاسلام والوكلاء والوزراء والمشيرون وصدور العلماء واقفون وقوف الخشوع بالملابس الرسميَّة والنياشين فيدخل جلالة السلطان

قاعة الاستراحة فيستريح هنيهة ثم يدخلون الى المكان الذي يفخر على كل مكان لشرف احتوائهِ على المخلفات النبويَّة فيفتح الحفظة امام جلالتهِ صندوقاً من الفضة ويخرجون منهُ تلك المخلفات فيقبلها جلالتهُ ثم يضعونها على مائدة . وهي البردة الَّتي اعطاها النبي كعب بن زهير وسنٌّ من اسنان المصطفى صلى الله عليهِ وسلم وشعرات من شعرهِ الشريف ونعالهُ الشريفة وبقيَّة من البيرق الشريف واناءانِ من الحديد لسيدنا ابراهيم الخليل كان يشرب بهما الماءَ من زمزم وجبةُ الامام ابي حنيفة وذراع سيدنا يحيى. ويقف جلالة السلطان امام تلك المخلفات ويقف الغازي عثمان باشا بجانبها ولديهِ مناديل بيض مكتوب عليها بالحرير الملوَّن بعض الجمل المباركة . ثم يدخل الزائرون فيعطي عثمان باشا لكل واحد منديلاً بعد ان يمسح بهِ المخلفات فيقبلهُ آخذهُ وينصرف ويأتي غيرهُ حتَّى تنتهي الزيارة

وتنحصر زيارة المخلفات في رجال الرتبة الاولى من الصنف الاول فما فوقها ومن رتبة الفريق فما فوقها ومن باية

الحرمين وروم ايلي بكلربكي فما فوقهما وجلالة السلطان
واقف . فاذا انتهت زيارة الرجال دخلت السيدات على
مراتبهنّ فاذا انتهت زيارتهنّ اعادوا المخلفات الى صندوقها
واغلقوهُ امام جلالتهِ . وفي خلال تلك الزيارة الشريفة
لا يخلي الجواسيس جلالة السلطان من تقديم التقارير متتابعة
فيقرأها في وقتها . وقد كتب لهُ جاسوس في احدى الزيارات
ان الكوبري وُضع فيهِ ديناميت فاندكت اركان السراي
لهذا الخبر الفظيع والنبإِ الشنيع وماج الناس وبعث جلالة
السلطان بامنائهِ واحداً عقب واحدٍ لتفتيش الكوبري فما
وجدوا شيئاً وما عوقب الجاسوس الذي حلّ نظام الزيارة
بقذف الرعب في القلوب — لاحتمال ان يصدق مرةً في
المستقبل — وقد عاش اولئك الجواسيس عشرين سنة يقدمون
التقارير فينهبون بها نفائس اوقات السلطان وما سمعنا انهم
كشفوا لجلالتهِ مؤامرةً ولا اظهروا عصبةً للفساد ولا بينوا
جمعيةً للشرور وانما هو كذب فوق كذب وافك فوق افك
يحلون بهِ عرى الصداقة والولاء من القلوب الصادقة . ومن

حظهم ان لا عقاب عليهم لاحتمال ان يصدقوا في العمر مرة واحدة

وفي اكثر السنين يفطر جلالة السلطان في تلك السراي فيأتي الخدم من سراي يلديز بالاواني الذهبيَّة الموصعة والموائد الفضيَّة وما يتبعها من انواع الزخارف والزينة الَّتي لا توجد عند جميع ملوك الارض لافطار جلالتهِ فيملأُون بها سفينة كبيرة . وفي السنة الَّتي قبل الماضية افطر جلالتهُ في مستودع المخلفات النبويَّة الَّتي بقيت ثلاثة عشر قرناً ملتثم شفاه الملوك والسلاطين وما هي بذهب ولا بحجر كريم وانما هي صوف خشن من لباس خاتم المرسلين . فتمد هنالك موائد العظمة المناسبة لأبهة السلطنة . ولكن لما كان الزمان قد اخذ على نفسهِ ان لا يتم سروراً غرقت السفينة وهي عائدة مشحونة بالمواعين السلطانيَّة في ليلتها وغرق خمسون خادماً كانوا في خدمة المائدة وأُمرت الجرائد ان لا تكتب في ذلك حرفاً

ثم يعود جلالتهُ احياناً من طريق غير الذي جاء منهُ

فاذا دخل يلديز أطمأنت القلوب وسكنت الخواطر واستوت سفينة النجاة على الجوديّ

وما الخوف الَّا ما تخوَّفهُ الفتى　ولا الأمن الَّا ما رآهُ الفتى أمنا

التفسير الشريف

من اجل شعائر الخلافة وافضل عوائد السلطنة قراءة التفسير الشريف في شهر رمضان المُعَظَّم في السراي السلطانية بحضور جلالة السلطان وهذه عادة ابتدأ اسلاف جلالتهِ بها منذ مائة وخمسين سنة فبلغ الدرس الآن من التفسير الى آخر سورة الانفال . وعدد الدروس عشرة تقرأُ في اثناء الشهر المبارك من كل سنة

فتنتخب السراي عشرة من العلماء من المنسوبين اليها والمعروفين لديها بالاوصاف اللائقة لحضور هذا المحفل الجليل وتنتخب لكل واحد منهم عشرة من طلبة العلم الموصوفين بمحاسن الآداب يحضرون يوم حضور مدرسهم لقراءة درسهِ فيسألونهُ بعض الاسئلة في الذي يقرأهُ من التفسير وهو يجاوبهم واسئلتهم واجوبتهُ معلومة لجلالة السلطان قبل

الدخول الى الدرس حفظاً للهواجس وتقييداً للخطرات ان
تنحدر على اللسان والبلاءُ موكل بالمنطق . وتعيين أيام
الدروس في اثناء الشهر موقوف على صدور الارادة السنيَّة
بهِ فيحضر المدرس صاحب اليوم باصحابهِ العشرة من طلبة
العلم الى المابين بعد صلاة الظهر فيدخلون الى المكان
المخصوص لقراءَة الدرس ويدخل المشايخ ورجال المابين
الذين يختارهم جلالتهُ لشرف الحضور لهذا الدرس فيجلسون
الجميع جلسة الصلاة ما بقي الدرس على شكل هلال ونجم
ذلك الهلال كرسي جلالة السلطان الذي يجلس عليهِ .ويبتدئُ
المدرس في القراءَة والطلبة في الاسئلة المعلومة حتَّى ينتهي
الدرس قبيل صلاة العصر وجلالة السلطان جالس يسمع تارةً
ويقرأُ تارةً من الاوراق ما لا يحتمل تأخيراً ولا يجيز الاعتناء
بها ارجاءً فاذا انفض ذلك المحفل الديني الشريف اخذ
المدرس والطلبة عوائدهم من الاحسان السلطاني وانصرفوا
بعد قراءَة الفاتحة داعين شاكرين لازالت هذه العادة الشريفة
جارية في هذا البيت الرفيع القدر ما هلَّ على المسلمين هلال الشهر

ديش كراسي (اجرة الاسنان)

هذه عادة قديمة من عوائد بيت السلطنة في شهر رمضان وهي ان يعطى لمن يفطر فيهِ بعد الافطار من الصدر الاعظم وشيخ الاسلام الى من يسعدهُ الحظ بالافطار فيهِ من آحاد الناس صرة من النقود تناسب قدر المفطر فيعطى من الف ليرة الى ربع ليرة ويقدَّر ما يصرف لهذه العادة في الشهر المبارك من ستين الف ليرة الى سبعين الفاً . وقد انحصر اكثرها هذه السنوات الاخيرة في طائفة الجواسيس فهم يذهبون الى السراي افواجاً قبل الغروب فيدخلون الى حجرات الذين يقدمون تقاريرهم بواسطتهم من رجال المابين وبعد الافطار يكتب صاحب الحجرة اسماء الذين افطروا عندهُ من الجواسيس ويبعث بها الى جلالة السلطان وجلالتهُ يعرفهم باشخاصهم او يدخل بها عليهِ فيعطي جلالتهُ لكل واحد منهم على قدر ما تستحق خدمتهُ من عشرين ليرة الى مائة ليرة واذا اغفل جلالتهُ واحداً منهم طلب عادتهُ بورقة يقدمها

الى اليد الشريفة طلب الحق الواجب دلالاً من الجاسوس على تلك السدة السلطانية . وقد صبّ الجواسيس على صحائف اعمالهم التي لم يبقَ منها سن ابرة لَكتابة عمل سيء في هذا الشهر المبارك شهر الخيرات والحسنات درديّ ما بقي في مخيلاتهم من عكر السعايات والوشايات فيكدرون صفاء عيش الناس في صيامهم وصلاتهم وعبادتهم ليذكروا بحسن قيامهم بالخدمة فتسمن صررهم بعجافة ذممهم ويساعدهم على التوسع في اساليب الفتنة ضرورة اجتماع الناس بعضهم ببعض في هذا الشهر المُعَظَّم في المساجد واماكن العبادة كآيا صوفيا وجامع بايزيد وجامع الفاتح فان الناس يذهبون اليها لصلاة العصر وسماع الوعظ — كلمة بقيت من كلمات العصر الاول — ولايخلو يوم من ايام الشهر المبارك من سحب واعظ من كرسي الوعظ الى مهواة الاستنطاق في هذه المساجد فينثُر الجمع من حولهِ نثر السبحة او العقد خانهُ النظام بسطر يكتبهُ جاسوس لتأويل كلامهِ في درسهِ الى امر بمعروف او نهي عن منكر فيخرج الناس من المسجد عقب

هذا المنظر وقد علا وجوههم اصفرار الخوف فوق فتور الصوم فاذا نظر احدهم الى وجههِ في مرآة انكر نفسهُ

وفي اواخر الشهر يفطر الضباط والعساكر في السراي فيعطى للضابط اجرة اسنانهِ قيمة مرتبهِ الشهري ويعطى للعسكري كذلك

والعساكر خارج الاستانة يصومون الدهر جوعاً ويُحرمون طول عمرهم من غير عرفة لان الدولة لا تكسوهم ولا تطعمهم وانما تطلب منهم ان يموتوا في حبها

وفي شهر رمضان يقوم سوق في جامع بايزيد يسمونهُ السركي اي المعرض يحتوي على البضائع والتحف النفيسة وانواع الماكولات واصناف الحلواء فيقصدهُ الوكلاء والوزراء والكبراء فيجلسون على الحوانيت لتمضية الوقت من آخر النهار ولا يكلم بعضهم بعضاً الّا كلام الزيارات الرسميَّة من وصف البرد والحر والثلج والمطر خوف التاجر والبائع والخادم والواقف والماشي لان جُلّ الداخلين اليهِ من الجواسيس .

وهذا المعرض عند اهل الاستانة يفوق معرض باريس في

انتظارهِ وقدرهِ فان العظماءَ ينتظرونهُ طول السنة لتفريج الهم والغم ساعة من النهار فيدخلون فيهِ ويزاحمون العامة والباعة باكتافهم دخول المطلق من السجن في حديقة الازبكيَّة في ليلة مقمرة وساعة مطربة ولكنهم حرموا فيهِ تلك الحريَّة بل تلك الام البرة والوالدة المشفقة الَّتي نشرت جناحها على تلك الجنة المصريَّة والله يعلم ان كل ساكن في الاستانة مهما بلغ من القدر لا يدري اتدخل عليهِ الشمس صباحاً من نافذة البيت او نافذة السجن ولا يدري طارق بيتهِ أَلخير ام لشر . ولو دهم اهل الاستانة شر هؤلاءِ الجواسيس دفعة واحدة لم يحملوهُ ولكن للتدريج سرًّا طبيعيًّا في احتمال الاذى

ليلة القدر

هذه الليلة احدى الليالي الخمس الَّتي يسمونها ليالي القنديل لانهم يسرجون فيها القناديل على منارات الجوامع في ارجاءِ الاستانة . وهي ليلة القدر . وليلة مولد النبي صلى الله عليهِ وسلم . وليلة الجمعة الاولى من رجب واسمها

(ليلة رغائب) وهي الليلة الّتي حملت فيها ام النبي بهِ .
وليلة المعراج . وليلة النصف من شهر شعبان واسمها عندهم
(ليلة برات) اي ليلة العتق ويحييها جلالة السلطان في
الجامع الحميدي وفي صباحها يفد كبراء الدولة على المابين
لتهنئة الحضرة السلطانيةً بها ويهنئ الناس بعضهم بعضاً بتلك
الليالي المباركة

فيصعد الكبراء والامراء والعظماء الى الجامع الحميدي
بعد العشاء في الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان
وهي ليلة القدر فيقفون في انتظار بزوغ النور الامامي من
مطلع يلديز حتى يخرج جلالتهُ على هذه الجموع بين انوار
الشموع ونور الامامة غالب على كل نور فاذا جلس جلالتهُ
في مكانهِ الخاص بهِ قرئَ المولد النبوي واقيمت الاذكار
ورتل القرآن ورفعت الاصوات بالدعوات ثم يرجع جلالتهُ
في هذه الابهة وهذا الجلال الى مقر عرشهِ الحميدي

عيد الفطر

يخرج جلالة السلطان لصلاة العيد في موكبهِ المشهور

بالحسن والجمال والابهة والجلال فيصل من يلديز الى جامع
بشكطاش وبعد تأدية الصلاة يركب جلالة السلطان جوادًا
ويمشي تحت ركابهِ عثمان باشا الغازي والصدور والوكلاء
والوزراء مشاة على مقربة من الجواد وعلى جلالة السلطان
كسوة ملازم من ضباط الجيش والنشان العثماني فوقها ولا
يزال الموكب سائرًا حتَّى يصل الى سراي (طولمه بغجه)
وهي من أشهر الابنية في العالم حسنًا وجمالاً وقد صرف
على بنائها في زمن المرحوم السلطان عبد المجيد اربعة
ملايين ليرة وصرف على بابها المرمر المصنع بالذهب ثمانون
الف ليرة ولا يوجد في ابنية الدنيا مثلهُ وهي خالية .
وكان هذا اول دين اقترضتهُ الدولة . اما بهوها فوحيد في
بابهِ وفي وسطهِ تخت السلطان الغوري المرصع وعليهِ يجلس
جلالة السلطان يوم العيد واول من يدخل على جلالتهِ نقيب
الاشراف فيقف بين يديهِ وجلالتهُ واقف ثم يدعو لهُ بطول
العمر والتأييد وبعدهُ يدخل الصدر الاعظم فيقبل ذيل
ثوبهِ وكذلك شيخ الاسلام ثم يدخل الوكلاء فيقبلون

رجله ُ ثم يصطفون ويجلس جلالة السلطان فيدخل المأمورون من الرتبة الاولى من الصنف الثاني من القلمية ورتبة ميرميران من الملكيَّة ورتبة ميرلواء من العسكريَّة ورتبة مكه بايه سي من العلميَّة فما فوقها فيقبلون هدُّاباً اسمهُ السجق يمسكهُ عثمان باشا عن يمين التخت فاذا انتهت التشريفات عاد جلالة السلطان على مركبتهِ السلطانيَّة الى يلديز فيأتي تراجمة السفارات للتبريك بالعيد من طرف سفرائهم

ثم تتوارد تلغرافات التهاني من الملوك والامبراطورات ومن الحضرة الفخيمة الخديويَّة ثم من شريف مكة فيجاب عليها بارادتهِ السنيَّة ولا حاجة الى ذكر الاحتياط والحذر والتحفظ والتحرز وما يؤْخذ لهذا اليوم من قبل فقد تقدم الوصف

عيد الاضحى

لايختلف عن عيد الفطر الاَّ في ذبح ثلاثين كبشاً يذبحها موظف مخصوص اسمهُ قربانجي باشي عن جلالة السلطان ويختلف ايضاً بتغيير حديث الخطبة فيوضع مكان ان الله جميلٌ يحب الجمال (سمنوا ضحاياكم)

اول السنة الجديدة

للسلطنة عادة في هذا اليوم وهي ان يعطى للوافدين على السراي السلطانيَّة للتهنئة بافتتاح السنة من اعضاء العائلة السلطانيَّة الى صغار المأمورين نقود مضروبة بتاريخ السنة الجديدة فيعطى من الف ليرة الى الليرة الواحدة والكبراء الذين يأخذون من تلك النقود يعطون منها في عودتهم لاولادهم ومنتسبيهم تفاؤلاً وتبركاً بها وكان الصدر الاعظم في الماضي اذا رجع الى الباب العالي اعطى لمأموريهِ من تلك النقود ولكن بطلت هذه العادة باتصال المأمورين بالحضرة السلطانيَّة بواسطة التقارير السريَّة فهم يأخذون من جلالتهِ مباشرة كما يأخذ الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

ليلة المولد النبوي

هي من ليالي القنديل الخمس الّتي ذكرناها والرسم في احيائها جميعها لا يختلف فتسرج منارات المساجد عموماً ويحضر جلالة السلطان في الجامع الحميدي لاحيائها بالقراءات والصلوات

الميلاد السلطاني

هذا الميلاد يقع في اليوم السادس عشر من شهر شعبان المُعَظَّم ووصفهُ لا يختلف عن وصف عيد الجلوس الذي تقدم ذكرهُ



المقالة الحادية عشرة

تقليد المناصب العثمانيَّة

كنت يوماً احدث فاضلاً من العثمانيين قبل ان ادخل الاستانة واعرف احوالها فقال لي اذا رأيت او سمعت في بلد من بلاد الدولة العثمانيَّة بطاغية من طواغي الظلم وداهية من دواهي الغشم سلاَّباً نهاباً فتاكاً هتاكاً أفاكاً غليظ القلب شديد الوطأة على الرعيَّة وديعة الله الضائعة طائش اليدين في اهراق الاحمرين الذهب والدم مخضب اليمين بالدم واليسار بالذهب يميت السنة ويحيي البدعة ويحرم الحلال ويحل الحرام وينظر شزرًا وينأى كبرًا ويشمخ انفاً ويلعن

ألفاً فاعلم انهُ ما خرج من الاستانة الا وهو عاقد العزيمة على ارتكاب هذه الكبائر لما قاساهُ وعاناهُ وما حملهُ على كاهلهِ من كبر القوم في خروجهِ وما حطهُ عنهُ لهم من المال في دخولهِ وما وقف عليهِ من الحقائق واطلع عليهِ من ضياع الامور وفوضويَّة الجمهور .

فحسبت محدثي يبالغ وظللت اعتقد ذلك حتى دخلت الاستانة وعرفت احوالها فعلمت ان الرجل لم يقل غير ما يقولهُ كل من اقام في ذلك البلد زمناً

يأتي المعزولون من المأمورين على اختلاف طبقاتهم زرافات ووحداناً الى دار السلطنة . هذا عزل لطول مدتهِ في وظيفتهِ وذاك عزل لسقوط دعامتهِ وزوال حمايتهِ وهلمَّ جرًّا فيدخلون وعبابهم مملوءَة بالمال ورؤُسهم بالآمال فيطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتَّاب والحجاب ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكاتب والحاجب والنديم والصاحب ويباشرون وظيفة الوقوف للسلام صباح مساء فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على ابواب النظارات

فيركعون لاشارة بالكف او نظرة بالطرف ممن يمر عليهم
من ولاة الامور . ويقيمون على هذا الحال سنوات والكاتب
يعدهم والحاجب يمنيهم وحبل الامل مطوي على القلب لطوله
طي البكرة كلما انفصل منهُ ثنيٌ بدا ثنيٌ . ولا ينفعهم ما
يظهرون من علامات الفقر واشارات الفاقة من الاسمال
البالية والعيون الباكية لان القوم ادهى من ان يخدعوا بهذا
وكيف يخدعون وعندهم العيون والارصاد عليهم فهم يعلمون
بما لهم من الثروة والعقار في بلادهم وما باعوا وما بقي فاذا
استنزفوا ما يملكون واخرجوهم من مالهم خروج الحية من
قميصها اعادوهم الى الوظائف ليجمعوا لهم الاموال في رجعة
اخرى

فيخرجون من الاستانة وقد وقفوا على القصد الحقيقي
من السلطنة والدولة والخلافة والامامة والجيوش والمعاقل
والحصون والرتب والنياشين وهو حفظ ذات مولانا
السلطان حفظهُ الله وابقاهُ وجعل الامة والدولة فداهُ .
فلا يرغبهم في استبقاء وظائفهم عدل وانصاف ولا يرهبهم

خشية العزل ظلم واعتساف بعد اقامتهم في تلك المدرسة اعواماً وبعد دخولهم وراء الملعب ورؤيتهم صور اللاعبين كما هي وبعد معرفتهم بخوف زيد وعجز عمرو واكاذيب بكر وألاعيب خالد وبعد ان صارت القبة التي كانوا ينظرونها من بعدٍ حبةً من القرب . فلا ترى الرعيّة منهم بعد ذلك الّا نموراً تمزق الاعضاء واسوداً تفرق الاشلاء وافاعي ناهشات وعقارب قاتلات ولا يرون منها الّا نقاداً وحملاناً ليس لها ما تدفع بهِ

وما رأيك في قوم علموا ان الحكومة حظرت على المطبوعات ان تجمع في جريدة بين حرفين لظلامة مظلوم او شكاية شاكٍ وعرفوا ان لا عقاب على الرشوة ولا مؤاخذة في استعمال القسوة ولا جناح على الكاذب ولا عيب على الخائن ولا وصمة على المنافق

قال رجل من الاتقياء الصلحاء لصاحب لهُ كان يعاشرهُ " قد عزلوني ولا ذنب لي كما تعلم فجئت هنا وقد مضى عليّ ثلاثة اعوام وانا ابعثر الاموال واقبل الاذيال حتّى

لم يبقَ لي مال ولا لوجهي ماء . اضحك اذا ضحكوا واغضب
اذا غضبوا واحزن اذا حزنوا والعن اذا لعنوا وامدح اذا
مدحوا ومانلت منهم الاَّ وعدًا صار في اذني رعدًا مطرهُ
من دموعي الهتانة وبرقهُ من ثناياهم البسَّامة وقد مات ابي
في بلادي ومرض ابني ووضعت زوجتي وبيع اثاث بيتي
وصرت لطول المدة لا اقدر على الرجوع خائبًا ولا على
الاقامة محتاجاً وقد عينوني في وظيفة وقبل سفري اليها
حولوها الى آخر لقوة المنسوب اليهِ وشدة نفوذهِ وهم
يعدونني الآن بوظيفة في طرابلس الغرب وانا انتظرها
انتظار المريض الشفاء وليس لي همٌّ الاَّ ان اكون يوماً من
الايام في عدد الذين يسلمونها الى ايطاليا او فرنسا "

هذا حال المأمورين وهذه نياتهم وعزائمهم . أيصلح
بهم بعد هذا امر ويرأب بهم صدع ويرتق بهم فتق ويؤمن
بهم على راحة وامن . كلاَّ ثم كلاَّ

اما الولاة فكثيرًا ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم
بذنب انهم محبوبون من الاهالي كما حصل لعثمان باشا والي

الحجاز سابقاً فانهُ عزل عن الحجاز بدعوى ان الاهالي يحبونهُ ويسأَلون الله في الحرم ان يبقيهُ فيهم فجعلوا من هذا سبباً عظيماً لعزلهِ فعزل . وان كثيراً من الناس يوظفون في الولايات لا بعادهم عن الاستانة فينفون على هذه الصورة فمنهم احمد افندي قدري صاحب جريدة الاعتدال بقي في الاستانة مدة طويلة بعد الغاء جريدتهِ يقاتل الاحتياج واصحابهُ الذين ألغى كامل باشا جريدتهُ لاجلهم يجودون عليهِ بسد الرمق احياناً لاسكاتهِ عن كشف ما يعلمهُ من مستور امورهم ولما ضاق بهِ الحال جاءَ الى نظارة المعارف وقال على ملإٍ من الحاضرين " اني قدمت كثيراً من العرائض للباشكاتب ثريًا باشا لالتماس خدمة من جلالة السلطان فما اجابني عنها بجواب وقد استعرت اليوم مسدساً وملأتهُ بالرصاص وانا عازم على قتل ثريا باشا في الجامع الحميدي عند حضور جلالة السلطان للصلاة " فطار الخبر الى المابين في الحال فصدرت الارادة السنيَّة لناظر الضبطيَّة باخذ المسدَّس منهُ اولاً وبتعيينهِ باشكاتب في متصرفيَّة بلدتهِ

طرابلس الشام بالف وخمسمائة غرش وبان يبقى في الضبطية حَتَّى تسافر الباخرة الى تلك الجهة . وما اقدم قدري افندي مع ذكائهِ على هذا القول المستوجب للمحاكمة الاَّ وهو على يقين ان يأتي بخيرهِ ونجاحهِ لانهُ كان من زمرة اللاعبين في الملعب . فمن يخاف هذا المأمور بعد ذلك وممن يخشى ومن يقي عبادالله من بؤسهِ . وقس على هذا كلهم او جلهم . قال نافع افندي وهو من الولاة المعزولين ومن الطرز الاول لمنيف باشا وقد سمع بهذا واشباههِ قد طالت عطلتي واني ارتب الآن في نفسي كلاماً يخشن مسهُ لاقولهُ امام جاسوس عسى ان أُنفى لهُ بوظيفة في الخارج

ولقد صار الولاة والحكام والعلماء يراؤون بالرذائل والنقائص ليأمنوا على وظائفهم ويعيشوا في بلدتهم ومسقط رأسهم ونحن نذكر حكاية نموذجاً لهذا : تولى قاضٍ لاسلامبول من اهل التقى والصلاح وكان لهُ صديق حميم فتقدمت للمحكمة دعوى لصاحب من اصحاب ذلك الصديق فوجد من القاضي انحرافاً عن الحق . ولما خرج

من عنده ِ قال لهُ احد الحجاب كم تدفع لخلاص دعواك.
فلم يجبهُ ورجع الى صاحبهِ وقصَّ عليهِ ما جرى فلم يصدق
الخبر وذهب الى القاضي ورجا منهُ ان ينصر الحق في تلك
الدعوى فوعدهُ . ولما عاد صاحب الدعوى الى القاضي
رأى منهُ ما رأى اولاً . وعند خروجهِ قال لهُ الحاجب
ثانياً "لا تنتهي دعواك الاَّ على ما بينت لك" فذهب الرجل
الى صاحبهِ وحلف لهُ على صحة ما جرى فغضب الصديق
ورجع الى القاضي يعاتبهُ ويقبح مسلكهُ الذي اتخذهُ بعد
توليتهِ القضاء . وبعد جدال ونزاع طويل جرى بينهما قال
لهُ القاضي أتريد ان يشهر عني خلاف ما عليهِ القوم فيحنقوا
عليَّ ويسخطوا ويظنوا بي الظنون ويجعلوني غرضاً لهم .
فخرج الرجل من عند القاضي وهو يلعن العذر والمعتذر
ويقول لن تفلح امة يرائي قاضيها بالارتشاء

اما نحن فنقول ان كان القاضي صادقاً في اعتذارهِ
كان من فظائع البلاء ان يصبح الارتشاء بين قوم من
الرياء وان كاذباً فمحمول على مسند القضاء في الدولة كما

قال ابو الحسن الجزار الشاعر وقد دعاهُ اصحابهُ يوماً ليخرج معهم للنزهة خارج المدينة فوقفوا في طريقهم على جزار ليشتروا لحماً وترجوهُ ان يقطعهُ لانهُ ادرى باطايبهِ فقطع لهم لحماً رديئاً فلاموهُ فقال لهم اعذروني ولا تؤاخذوني لاني لما وقفت وراء القرمة ادركني لؤم الجزارين

لا يشك خبير ان دار السلطنة أُمّ العجائب في تقليد الوظائف لغير اهلها وليس هذا قاصراً على الوظائف الاداريّة والقلميَّة والسياسيَّة بل تعداها الى الرتب والمناصب العسكريَّة والبحرية . فمن اعجب العجائب ان رجلاً كان يمشي فوجد ضابطاً بحريًّا بسيفهِ وملابسهِ الرسميَّة يقصدهُ في طريقهِ ضاحكاً ولما دنا منهُ سلم عليهِ والرجل ينكرهُ . فقال الضابط انا فلان . قال الرجل ما هذا الذي اراهُ يافلان وانت لم توظف قط ولا دخلت زمانك العسكريَّة ارجع فاخلع ثيابك واعلم ان العقاب شديد على من يفعل ما فعلت ولا ارى الاَّ رجال الشرطة يأْخذونك ان لم ترجع في الحال من طريق غير مطروق فانجُ من مصيبة اوقعك

فيها الشباب والجنون . قال الضابط اصمت يا هذا فانا لا ارضى ان اكون ضابطاً عسكريًّا كما توهمت بل اني ضابط بحري وازيدك ايضاً اني عضو في مجلس البحريَّة بموجب الارادة السنيَّة . قال الرجل عوضنا الله فيك خيراً فانت رجل مختل الشعور ثم ودعهُ وانصرف مسرعاً يترقب ان كان قد رآهُ معهُ احدٌ . وبعد يومين علم بصدق ما بالغ في تكذيبهِ فخرج من الاستانة ولم يعد اليها

ومن ذلك الفريقان الياوران محمد باشا ومحيي الدين باشا نجلا الامير عبد القادر الجزائري فانهما كانا بادىء الامر برتبة الحرمين العلميَّة ثم انتقلا الى رتبة روم ايلي بكلربكي الملكيَّة في دمشق الشام ولما قدما دار السعادة تقلدا رتبة الفريق بسيفها وشرائطها وهما لا يعرفان من تعليم الجندي حرفاً وقد اراد احد الضباط لما سمع بهذا الخبر ان يكسر سيفهُ وقال كلهُ يحتمل الاَّ هذا

وكان الباب العالي مرجع الوزارات والولايات والسفارات والسياسات الدوليَّة ومصدر التوظيف والعزل

والتنقل وتوجيه الرتب والنياشين على مستحقيها وكان الصدر
الاعظم مسؤولاً امام الحضرة السلطانيَّة عن جميع الشؤون
كبيرها وصغيرها في انحاء السلطنة ومع الدول فكان
يتحرى جهدهُ مع زملائهِ في مجلس الوكلاء في ترتيب الامور
وسياسة الجمهور وتقليد الوظائف اربابها على اكمل مايستطيع
من حسن الترتيب . وما كان لاحد من الوكلاء والوزراء
ان يخاطب جلالة السلطان في شأن من الشؤون ولا ان
يذهب الى المابين من غير اذن من الصدر الاعظم الذي
هو الوكيل المطلق بنص فرمان الصدارة . فانحل ذلك
النظام واختل ذلك الترتيب وصار الصدر الاعظم لا يعلم
بتوظيف زيد وعزل عمرو الاَّ بعد ايام من وقوعهِ وصار
الباب العالي ديواناً للقيد والتسجيل وانحصرت امور الدولة
في رجال المابين فاختلطت الوظائف بعضها ببعض وتقلدها
غير اربابها واصبح الشيخ سفيراً في سياسة الدولة مع الانكليز
كالسيد احمد اسعدوطابخ الشاي والياً كعزت افندي ولاعب
التياترو مابينجياً يبعث الى السفراء كعارف بك وهلمَّ جرًّا

على هذا النمط حتَّى امست الوظائف كخرزات مختلفة الالوان وضعها واضع في جعبة ثم جلجلها ما استطاع وفتحها فانكب عليها شبان المابين يفرقون ما وقع في ايديهم على اصحابهم . فكانت نتيجة هذا ما تراهُ اليوم من حال الدولة في نصفها الثاني بعد ضياع النصف الاول

وآخر صدر حافظ على حقوق وظيفتهِ خير الدين باشا فانهُ استوءذن عليهِ يوماً لبهرام آغا وكان في ذلك الوقت باشمصاحب ولما دخل عليهِ قدم اليهِ جدولاً باسماء اشخاص يوظفهم وآخرين يزيد في رواتبهم .فقال لهُ الصدر ما لك وهذا ياوصيف قف حيث اوقفتك وظيفتك على باب الحرم ولا تدخل في شغل غيرك . ولما خرج بهرام آغا سأَل عن معنى "وصيف" فقيل لهُ معناهُ في تونس الخويدم. فامتلأَ إهاب الآغا على الصدر حقدًا . ودخل عقب هذا عليهِ السيد احمد اسعد ومعهُ قائمة كالاولى فسألهُ عن وظيفتهِ فقال وكيل الفراشة الشريفة .قال ايها الشيخ وظيفتك هي ان تدعو لجلالة السلطان . فخرج من عندهِ يعض على

ناجذيهِ لطلب الانتقام منهُ . ولما رأى خير الدين باشا ان لا قدرة لهُ على مقاومة اهل المابين استعفى من الصدارة . وقد اراد كامل باشا في صدارتهِ الَّتي سبقت هذه ان يردّ الى الصدارة بعض شأنها فقام عليهِ الشيخان اسعد وابو الهدى واشترك معهما غيرهما فدسوا الدسائس ونصبوا المكايد ومدوا حبال السعايات حَتَّى اقنعوا جلالة السلطان ان كل صدر يحاول ارجاع الصدارة الى شأنها الاول لا ينبغي ابقاؤُهُ في الصدارة يوماً واحداً والشاهد مدحت باشا . فعزلهُ جلالة السلطان . وصار الباب العالي الذي كان موضع المناجاة السياسيَّة والمخابرات العالية بين الصدر وسفراء الدول ميداناً للملاكمة والمشاتمة بين الصدر والوكلاء كما وقع اخيراً بين جواد باشا الصدر الاسبق وحسين رضا باشا ناظر العدليَّة ولولا دفاع الوزراء ودعاء شيخ الاسلام لسال دم الوكلاء في المجلس العالي قبل سيل دماء الارمن على بابهِ

ولا يزال الامر في ايدي اهل المابين يتصرفون فيهِ فان سمعوا بفاضل ابعدوهُ او سعوا في ابعاد الناس عنهُ بنسبة

نقيصة او فضيحة اليهِ كما وقع لمنيف باشا وهو رجل مشهور بالفضل والحكمة حين قام صاحب جريدة الميزان وهو مأْمور من دائرة وزارتهِ يكتب فيهِ بكلام صريح ما يخالف عفة شيخ من الوزراءِ تحت ادارتهِ مدارس البنات والوزير ساكت لا ينطق بحرف ولا يدافع عن نفسهِ بكلمة لعلمهِ ان قلم المطبوعات الذي يمحو من الجرائد لفظة حريَّة . ملة . امة . خطبة . سيف . قوة . سلاح . جمهوريَّة . مجلس نواب . مجلس ملة . مجلس امة . ولي عهد . جمعيَّة . تجمع . اجتماع وما يشتق منهُ — لا يجسر ان يقرأ قذف وزير من وكلاءِ الدولة ولا يمحوهُ ولا ينبه على كاتبهِ وطابعهِ ليعاقبا الأَّ بايعاز من السراي الشاهانيَّة . ولما رأى احد اصدقاءِ الوزير ما أَلمَّ بهِ من الغم والهم قال لهُ تالله ان ذهبت اليوم الى السراي بعد هذا الذي كتب فيك ترى من الالتفات والاقبال ما يسرك لان ابتعاد الناس عنك بمحو فضائلك يقربك من جلالة السلطان . فذهب الوزير كما قال صديقهُ فنال من الالتفات والاكرام والاحسان ما لم يرهُ طول حياتهِ

السفراء

ان اهم الوظائف قدرًا وظيفة السفير لانهُ صورة الملك والامة المبعوث منها الى ملك آخر وامة اخرى . فينبغي ان يكون همهُ تحسين تلك الصورة من جهة ومعرفة خفايا سياسة الدولة المبعوث اليها وسياسة دولتهِ المبعوث منها من جهة اخرى . وعلى هذا يجب ان يكون من دهاة الرجال الصادقين المحنكين المتقلبين في فنون السياسة . والامر في سفراء الدولة بالعكس فان شذَّ في الحنكة والدربة واحد منهم كان مثل المرحوم اسعد باشا سفير الدولة في باريس . ومع وصفهِ بهذا الوصف فان علمهُ اضرَّ بالدولة لاشتمال اليأس عليهِ واجتهادهِ في ادخال غيرهِ في يأسهِ . فقد قال لاحد الفضلاء لما رآهُ دائبًا مجتهدًا في نصح الدولة وايقاظها من نومها بكتاباتهِ وخطبهِ "ايها السيد الفاضل ان الله اراد موت هذه الدولة فكيف تقدر على احيائها انت" أيقول هذا سفير . اظن ان جزاء هذا القول لا يوجد

في قانون . هؤلاء هم الذين في ايديهم روح الدولة في اوربا وهؤلاء هم صور الملك والامة العثمانية امام الملوك والامم في اوربا. يا خيبة المسعى ويا ضياع الامة ويا سقوط الدولة. ولكن ماذا ينقص السراي الهمايونية اذا كان السفير يواظب ليلاً ونهاراً على ارسال التلغرافات بما تكتبهُ الجرائد فيما يمسُّ الجلالة الخاقانية . ويقال ان ما ينفق على هذه التلغرافات لا يبلغ ما ينفق على مصلحة الدولة السياسية معشارهُ . ومن العجب ان سفراءَ الدولة يرون الملوك ويجتمعون بهم ويعاشرونهم ولا يرون الذات المقدَّسة الشاهانيَّة الَّتي بعثتهم. ومما يتأَسف لهُ العثماني ان يرى دولتهُ قد استعملت من التملق للدول ما اضحك الاوربيين علينا فان العادة كانت جارية ان تعطي الدولة لسفراء الدول الذين من الطبقة الاولى نشانها العثماني الاول وتعطي للذين من الطبقة الثانية نشانها المجيدي الاول وكانت الدول تقابل سفراءَ الدولة بالمثل فتعطي سفراءَها نياشينها والآن تعطي دولتنا لسفراء الدول النشان العثماني المرصع وسفراءُ الدولة لدى الدول لا ينالون

شيئاً فاي انحطاط . اقبح مِن هذا الانحطاط واي هوان افظع من هذا الهوان

اما سفراء الدولة الذين لم يشذوا من كليَّة الجهالة وقاعدة الحمق والخرق فيضرون الدولة بغباوتهم كما يضرها الشاذ بعلمهِ على ما ذكرنا آنفاً . ونذكر نموذجاً ليقاس عليهِ. كان للدولة سفير في رومية وهو الآن في الاستانة حضر يوماً الى حانوت يخص ادارة جريدة " الايطالي " لبيع جرائد المبادلة التي ترد اليها من الممالك والاقطار وكان في هذا الحانوت احد المصريين جالساً . فقال السفير لاجير الحانوت كيف حق لكم ان تضعوا رسم غردون باشا المقتول في الخرطوم بالملابس الرسميَّة والطربوش على رأسهِ وهو انكليزي . قال الاجير ان السفير اخطأَ اولاً في ارساله الى هنا فانهُ كان يلزمهُ ان يرسلك الى وزارة الخارجيَّة واخطأَ ثانياً لانك تلقب الانكليزي باشا وتنكر لبسهُ الطربوش العثماني . فاغتاظ السفير وشرع يتكلم بحدة فاحتد الاجير ايضاً وكاد الامر يفضي الى المشاتمة . ولما

رأى المصري وصول الامر الى حدّ لا تليق معهُ الفرجة قام فاصلح بينهما وقال للاجير ان حضرتهُ هو السفير عينهُ. فضحك الاجير وعبس السفير وانتهى الاشكال السياسي. وفي هذا السفير يقول موسيو جليان قنصل الدولة في رومية انهُ يكون معهُ في حلّ تلغراف سري بالارقام وارد اليهِ من الخارجيّة فينظر من النافذة فيرى امرأةً سائرة في الطريق فيخرج ليحادثها ويغازلها ويترك القنصل قائمًا والتلغراف في يدهِ منشورًا الى ان يعود فيعتذر بأبرد الاعذار

ولا يصعب على الدولة الّتي يكون هذا السفير في عاصمتها ان تستولي على مصوع وغيرها من املاك دولتهِ . وقد اقام هذا السفير الذي يشبههُ معظم سفراء الدولة في الفطانة سنين عديدة في رومية يحلّ التلغرافات بحذاء النافذة

نسأل الله سبحانهُ لدولةٍ هؤلاء صدورها ووزراؤها وسفراؤها وولاتها وقضاتها ان يخفف عنها ويرحمها ويحقق آمال رعيتها بها

المقالة الثانية عشرة

الدعاوى في الاستانة

قدم على الوليد رجل من عبس ضرير محطوم الوجه فسأَلهُ عن سبب ذلك فقال بتُّ ليلة في بطن وادٍ ولا اعلم في الارض عبسيًا يزيد مالهُ على مالي فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من اهل ومال وولد الاَّ صبيًا وبعيرًا فندَّ البعير والصبي معي فوضعتهُ واتبعت البعير فما جاوزت ابني قليلاً الاَّ ورأْس الذئب في بطنهِ يفترسهُ فتركتهُ واتبعت البعير فرمحني رمحة حطم بها وجهي واذهب عيني فاصبحت لا ذا مال ولا ولد ولا ذا بصر. فقال الوليد بن عبد الملك اذهبوا بهِ الى عروة بن الزبير — وكان قد اصابهُ بلاء متتابع — ليعلم ان في الناس من هو اعظم بلاءً منهُ

وصاحب دعوى في الاستانة اعظم والله بلاءً واكبر مصيبة منهما . ولقد كان يجب على الآباء والامهات ان يدخلوا في جمل الدعاء لابنائهم ان لا يحكم الله عليهم

بدعوى في الاستانة فان الدعوى فيها قصامة الظهور لابطاء الحكم واهمال الفصل فيها او لمصيبة الحفظ لاوراقها وربما ورث الابن دعوى ابيهِ وجدهِ

دخل رجل على ناظر الضبطيَّة وكان معهُ صاحب لهُ فقال الناظر لصاحبهِ أتعرف هذا الرجل . قال لا . قال هذا رجل من اهل الشام جاء الى الاستانة في دعوى لهُ واخذ تذكرة الباخرة ذهاباً واياباً وكان يظن انهُ لا يقيم هنا الاَّ اياماً والآن يعد سبع سنوات اقامها حتى وصلت حالهُ الى ما ترى مِن اسمالهِ البالية وما خلصت دعواهُ ولا خلص من بلواهُ . وقد اصبح قولهم "دعوى في الاستانة" في ولايات الدولة من اشد انواع التهديد فيفصل الولاة والقضاة والمتصرفون (جمع متصرف وهو اليق وصف لحاكم تركي) معضلات الدعاوى اذ ذاك فيرضى المظلوم ان يظلم في بلدهِ ولا ينفى الى دار السعادة فيجمع على نفسهِ بين ظلمهِ ونفيهِ وفقرهِ وموتهِ

مرَّ المرحوم عبد الله باشا فكري في اسواق الاستانة

فوجد رجلاً في حانوت يبيع اصنافاً من المناديل فوقف عليهِ ليشتري منها وفي اثناء حديثهِ مع الرجل رأى عليهِ مخائل طيب الاصل فسأله عن بلدهِ فقال الرجل من بغداد يا مولاي وكنت في بلدي من عليّة قومي فرماني القضاء والقدر في هذا البلد لدعوى بيني وبين جماعة من اهل بغداد فجئت الى دار الخلافة لانال من عدل الحكومة انصافي فبقيت ثلاثاً وعشرين سنة ودعواي واقفة لا يحكم لخصومي فأستريح باليأس ولا يحكم لي فأحصل على حقوقي وقد بعت جميع ما املك وانتهى بي الاحتياج الى ما ترى (لاقدر الله عليك بدعوى في الاستانة)

والبلاء كل البلاء ان يقال على الدعاوى كلمة "دورسون" يعني (ليحفظ) وما سمعنا بحكومة في الاسلام تحكم بالقرآن جعلت ايقاف الحكم في دعاوى العباد المتظلمين اليها شرعاً انزلتهُ عليها من سماء سياستها. ولقد صار هذا الحفظ من النواميس الطبيعيّة لان لكل دعوى في الاستانة قوتين قوة جاذبة وقوة دافعة فاذا غلبت احداهما على الاخرى لحقت

الدعوى بالغالبة فاذا تساوتا وقفت وهذا هو المسمى في عرفهم بالحفظ . اللهمَّ ان الضياع خير من الحفظ

وتلحق مصائب اخرى بالدعاوى فمن النوادر ان رجلاً من اهل حلب جاءَ لدعوى في وقف بتوكيل من المستحقين الذين يبلغون سبعين شخصاً من ارامل وايتام فاقام ثلاث سنين يتردد على نظارة الاوقاف وعلى الصدارة حتَّى اشرفت دعواهُ على الانتهاء واخذ يستعد للسفر جذلان فرحاً لخلاص اشغالهِ في تلك المدة الوجيزة ولم يبقَ عليهِ الَّا ان يذهب الى مقام المشيخة الاسلاميَّة لتضع تصديقاً على اوراقهِ. فذهب اليها وقدم اوراقهُ الى احد الكتاب فوعدهُ الكاتب بعرضها على المستشار ليأمر بهذا التصديق المطلوب ولما حضر المستشار وعرض الكاتب عليهِ تلك الاوراق استشاط غضباً واخذ يشتم صاحب الدعوى ويسبهُ بانواع من السب والشتم لا تخطر على بال اسفه السفهاء وامر الكاتب باحضار الرجل في الحال . ولما دخل الرجل على المستشار مع الكاتب وهما لا يعلمان سبباً اوجب تلك الشتائم اعاد المستشار الكرة على

الرجل بالشتم وقد همَّ بضربهِ . ولما سكن عنهُ بعض الغضب
قال للرجل كيف تسمي نفسك بسلطان . قال يا سيدي
انا لم اسمّ نفسي وانما سماني ابي وهذا الاسم شائع يسمى بهِ
اشخاص كثيرون وقد بقيت ثلاث سنوات وانا اتردد على
نظارة الاوقاف وعلى مقام الصدارة العظمى واسمي يكتب
في السجلات والاوراق وما سمعت هذا الاعتراض من
احد غيرك. قال المستشار أريد ان تقيم عليّ الحجة واشار
الى الكاتب بحفظ الاوراق وامر بطرد الرجل من المشيخة
والتنبيه بعدم دخولهِ اليها ان عاد . فخرج الرجل باكيًا على
ضياع حقهِ وحقوق موكليهِ المساكين الذين لا ذنب لهم الاَّ
ان وكيل دعواهم اسمهُ محمد سلطان . وكان الرجل يتردد
على بيوت الامراء فاذا رأوهُ لا يزيدون على التبسم لغرابة
ما حصل لهُ وما وجد منهم رجلاً تأخذهُ الغيرة والحميَّة
لعرض امرهِ على جلالة السلطان وكان الشيخ ابو الهدى
اذا رآهُ توجع لحالهِ وربما حكى لمن حولهُ قصتهُ الغريبة
بفصاحتهِ المشهورة وما زادهُ شيئًا عن ذلك التبسم الآخذ

بجامع القلوب الاَّ قلب صاحب الدعوى ولا يعرف قيمة الجوهر الاَّ مقوّمهُ . والرجل كان كثير الشكوى منهُ لانهُ من بلدهِ ولهُ معرفة قديمة بهِ

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا   من كان يألفهم في الموطن الخشنِ

هذا حال ارباب الدعاوى في دار الخلافة ومقر السلطنة ومهبط العدل السماوي والالهام الالهي ومؤتلف الكتاب والسيف في ايمان البيعة فاذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا بالخسران والخذلان فبكوا وابكوا وحزنوا واحزنوا وماتوا كمدًا واماتوا . ومما يزيد حزن المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ان يروا العدل باسمًا والظلم باكيًا بين رعايا الدول الاوربيَّة ومما يجب مفارقة الحياة ان يسمع المسلمون ان الدول تأمر دولة الاسلام باجراء العدل بين رعيتها وكان اللائق بمقام الاسلام ان تأمر دولتهُ دول العالم بما يأمرنها بهِ الآن من اجراء العدل بين رعاياها . وهل كانت وظيفة الخلافة في الاسلام غير رفع الظلم عن المظلومين في انحاء العالم وهل فتحت الممالك الاَّ بهذا ولهذا

المقالة الثالثة عشرة

المشايخ

هم حملة عرش الخلافة وعددهم اربعة وهم الشيخ السيد ابو الهدى الخانشيخوني الحلبي والشيخ السيد احمد اسعد القيصرلي المدني والشيخ السيد فضل باشا المليباري المكي والشيخ محمد ظافر المدني المغربي . وقد اختلف الناس اختلافاً عظيماً وتعددت آراؤهم في سبب قربهم من حضرة مولانا الخليفة والتصاقهم ببساطهِ وهم من الامة العربيَّة وما وضع عربي مهما كان حسبهُ ونسبهُ جبهتهُ منذ تأسست السلطنة العثمانيَّة حيث تطأُ الآن اقدامهم وما مدَّ عربي بصرهُ حيث يمدُّون ايديهم وما حدَّث عربي نفسهُ قبلهم ان يحدّث جلالة الخليفة في نجواهُ ويدخل معهُ في شؤُون السلطنة فيعزل الصدور ويوليهم ويبعدهم ويدنيهم بنصحهِ

فمن الناس من يقول ان سبب هذا القرب وهذه لزلفى ميل جلالة السلطان الى استطلاع المغيبات منهم لان

لهم مزاعم واسعة ودعاوى عريضة في هذا الباب . ومنهم من يقول ان سبب قربهم لهذا الحد من مقام الخلافة هو ما رتبوهُ في فكر جلالة السلطان بمقدَّماتٍ قدَّموها من ان سكون الامة العربيَّة وحركتها في ايديهم فاذا شاؤُوا قامت واذا شاؤُوا سكنت

ومن قدماء الاتراك جماعة يقولون ان الدولة لما ذهب من ممالكها ما ذهب في الحرب الروسيَّة وصارت الامة العربيَّة اعظم قسم تحكم عليهِ من اجناس رعيتها جنحت الى استعاضة ما فقدتهُ من شأْنها بتجديد اسم الخلافة الذي كان لا يذكر الَّا قليلاً حيناً بعد حين في القاب السلاطين السالفين الذين كانوا في غنى عن قيودها وشروطها بقوة السلطنة وبسطة السلطة وانتشار السطوة وكانت الامة العربيَّة تحدث نفسها دائماً بان الخلافة في قريشها بحكم النص وانها مغلوبة عليهِ بحكم القوة فارتأَت الدولة من الحكمة والسياسة ان تضع من شأْن الامة العربيَّة وتسلب عنها الاستعداد للقيام بامرٍ عظيم امام الامم فاختارت اولئك المشايخ رؤَساء وسادات

وفسحت لهم بطعن بعضهم على بعض فقالوا ونشروا واعلنوا في بعضهم البعض من انواع السب والقذف ومن التفسيق والتكفير ما أسقط الجميع ولكن زادهم تثبيتاً وتمكيناً في مراكزهم ومقاماتهم . ولو قيل في غيرهم معشار ما يقال فيهم لم يتحمل الملك قربهم ولم تطق السلطنة نسبتهم اليها . ومن قرأ ما يكتبهُ بعضهم في بعض حكم بان السلطنة لم تقبلهم معهُ الاَّ لامرٍ فوق كشف المغيبات وفوق حفظ الامة ان تثور لوجود من يقوم بهِ سواهم . هذا قول قوم من قدماء الترك فيهم

وقد عزمنا ان نذكر كيف اتصلوا في ابتداء امرهم بجلالة السلطان ونبدأُ بالشيخ السيد ابي الهدى ثم نذكر ما يقول بعضهم في بعض وما يقول خصومهم عليهم وما يقول احباؤُهم لهم وما ينسبونهُ الى انفسهم وآبائهم واجدادهم من الكرامات وخوارق العادات

وفد السيد ابو الهدى على الاستانة (وكان لا يلقب حينئذٍ الاَّ بالشيخ) في آخر حكم المرحوم السلطان عبد العزيز في زي اهل الطريق فأَخذ ينشد على الذكر في احدى

التكايا ويضرب على الدف على رسم الطريقة الرفاعيَّة الَّتي هي طريقتهُ . وكان لهُ شعر مرسل كالرفاعيَّة . والشيخ حسن الصوت فصيح اللسان صبيح الوجه ذكي القلب يجذب اليهِ نفوس بعض الامراء المتصوفين من اهل الاستانة وهو لا يأنف الآن من الانشاد في حلقة الذكر ولا يمتنع عن الحضور بنفسهِ اليهِ الَّا اذا كان مريضاً . ثم رجع من الاستانة الى حلب بوظيفة نقابة الاشراف على حلب . ثم عاد الى الاستانة بعد جلوس جلالة السلطان على تخت السلطنة بشهرين فتلقاهُ اصحابهُ بالاكرام وحسن النزل

وفي ذلك الوقت رأى جلالة السلطان رؤيا فقصها على حالت باشا وكان من اصحاب الشيخ فقال لجلالة السلطان اني اعرف شيخاً واسع المعرفة لهُ جانب مع الله ولو امر جلالة مولانا ان تقص عليهِ الرؤيا لوجدنا عندهُ تفسيرًا لها مطابقاً للواقع . فأمر جلالة السلطان باحضارهِ ولما قصَّ عليهِ المبلغ الرؤيا فسرها تفسيرًا اعجب بهِ جلالة السلطان فأحسن اليهِ . وبعد ذلك بأيام صعد الشيخ الى المابين وقال

قد رأيت النبي صلى الله عليهِ وسلم ليلة امس في الرؤيا فامرني ان ابلغ عنهُ جلالة الخليفة كلاماً وامرني ان يكون ذلك مني اليهِ من غير واسطة . فاهتزت السراي السلطانية لهذا الخبر واستعظموا الامر واستبشروا بالفتح وكانت الدولة تستعد لقبول اعلان الحرب الروسية وزاد جلالة السلطان في عيونهم قدراً للاتصال بالحضرة النبوية . ووجد جلالتهُ في ذلك الوقت المفعم بالمشاكل والاضطرابات بهذا الخبر مفرجاً لكربهِ وحافظاً لنفسهِ ففرح وامر الشيخ ابا الهدى ان يبلغهُ بالواسطة ما امرهُ بهِ النبي صلى الله عليهِ وسلم فامتنع وقال انما أُمرت ان ابلغهُ ذلك مشافهةً ولا يكون احد بيننا فقيل لهُ ان جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية وانت لا تعرف اللغة التركية فكيف يمكن ان تخاطبهُ بلا واسطة فاصرَّ على ذلك وذهب من السراي وقد اشتدت الرغبة في معرفة ما قالهُ صلى الله عليهِ وسلم . وفي الغد ارسلوا بطلبهِ ولما حضر قالوا ان جلالة مولانا السلطان امر ان يكون المترجم بهرام آغا فابى وقال لا افعل الاَّ ما امرني

بهِ النبي صلى الله عليهِ وسلم وتركهم . فحاروا في الامر كثيرًا
وبعد يومين صعد الشيخ ووجههُ يشرق بالبشر وقال قد
جئت لابلغ جلالة مولانا الخليفة بنفسي من غير واسطة فانا
الآن اتكلم باللغة التركيَّة وشرع يكلمهم بها بلسان فصيح .
فسألوهُ كيف ذلك فقال ان النبي صلى الله عليهِ وسلم جاءَني
في الرؤيا وتفل في فمي فتكلمت باللغة التركيَّة كما ترون وقد
انحلَّ المشكل فلما سمع جلالة السلطان بهذا امر ان يبحثوا
ان كان الشيخ يعرف التركيَّة من قبل فجاؤوا بشهود منهم
حافظ باشا من نظارة الضبطيَّة وغيرهِ يشهدون ان الشيخ لم
يكن يعرف كلمة تركيَّة قبل ذلك اليوم فدخل على جلالة
السلطان وابلغهُ الرسالة النبويَّة ولا يعلم احد ما هي . ومن
ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم
ينلها احد من قبلهِ وصار الوزراء والكبراء ومنهم المرحوم
جودت باشا صاحب التاريخ الذي مات معاديًا لهُ يقبلون
يدهُ . واستمرَّ على هذه الحال من التعظيم والتبجيل الى ان
صدرت الارادة السنيَّة بنفيهِ الى حلب ولا يعلم احد سبب

هذا النفي فقال عند خروجهِ سأعود بعد بضعة اشهر مدعوًّا بارادة جلالة مولانا السلطان من بلدي الى هنا . فصحَّ ما قالهُ واستدعاهُ جلالة السلطان بالتلغراف واحبابهُ يعدون هذا من كراماتهِ وخصومهُ يقولون انهُ ترجى الشيخ احمد اسعد والحاج علي بك الباشمبنجي ان يطلبا لهُ العفو من جلالة السلطان ففعلا وعفا جلالتهُ عنهُ . ولما جاء الى الاستانة ترك خطة الولاية وتبع خطة السياسة

الشيخ السيد احمد اسعد القيصرلي المدني

هو تركيٌّ الاصل من اهل قيصريَّة وقد هاجر احد اجدادهِ منها الى المدينة المنوَّرة فاستوطن بها وتعرب بيتهم فيها وكان من الذين يطوفون على الامراء في البلاد للنيابة عمن لهُ حصة منهم في الفراشة النبويَّة فيقوم مقامهُ في خدمة الروضة الشريفة . وهذه الخدمة يشترك فيها الكبراء والعظماء في سائر الاقطار فيكون للواحد منهم جزء من قيراط ويوكلون عنهم من يقوم بها في الروضة كايقاد القناديل وكنس البسط وما اشبه هذا من الخدمة التي هي من اعظم

المفاخر . فوفد السيد اسعد على الاستانة مرارًا وكان يتردد على الحضرة السلطانيَّة في ايام السلطان عبد العزيز وتوكل عنها في نصيبها من تلك الخدمة الشريفة وكان لهُ منزلة لدى جلالة السلطان لتعلق ولاة العهود بمن يعدهم بقرب ما يتمنون باقامة الصلوات وترتيل الدعوات في الاماكن الطاهرة المباركة . ولما جلس جلالة السلطان على تخت السلطنة نال السيد اسعد لديهِ حظوة الخادم الصادق وبقي في الاستانة تحت ظل جلالتهِ يرفهُ في النعيم ويتنعم في الرفاهة ويزداد قربًا بسكينتهِ وسكونهِ حتَّى صارت لهُ دائرة خاصة بهِ في المابين وهو من الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان واذا قيل في السراي "سيدافندي" فاياهُ يعنون . ولجلالة السلطان بهِ ثقة فاذا مرضت في السراي السلطانيَّة احدى الجواري فجلالتهُ يأمر بنقلها الى بيتهِ فان ابلَّت من مرضها عادت الى السراي وان ماتت خرجت من بيتهِ . ورجال المابين يحترمونهُ احترامًا عظيمًا يليق بالانتساب الى النبي صلى الله عليهِ وسلم وبقربهِ

من جلالة السلطان . وهو عاميّ لا اطلاع لهُ على شيء من المعارف والعلوم ولكنهُ يوقر نفسهُ بالاطراق ومداومة الصمت ولو قلنا عنهُ انهُ اميّ لا يكتب ولا يقرأ لكان امدح لهُ من ان نصف كتابتهُ . فقد كتب مرة الى صاحب لهُ ورقة فلم يفهم منها شيئاً واعاد خادمهُ للاستفهام عما كتبهُ . وقد انتهى الجدال في التماس العذر للسيد بين صاحبهِ وجلسائهِ بانهُ في اثناء كتابة ما كتب كان بجانبهِ صبي من اولادهِ يلعب بخط خطوطاً في ورقة وغلط السيد فطوى ورقة الصبي في الظرف مكان ورقتهِ . وقد طعن اعداؤهُ في انتسابهِ الى النبي عليهِ الصلاة والسلام طعناً حزبهُ جداً فاحتار في امرهِ ولم يقوَ على معارضتهم فتداركهُ السيد ابو الهدى واخذ بيدهِ فاخرجهُ من تلك الوهدة الّتي اوقعهُ خصومهُ فيها بان وهب لهُ نسبة رفاعيّة وجعلهُ عمهُ في النسب فمحت هذه الهمة الصياديّة ما كان بينهما من الموجدة القديمة . وعرف السيد اسعد لابن اخيهِ هذه المأثرة الّتي حفظ بها شرفهُ بين رجال المابين ولدى جلالة السلطان فاتفقا

واتحدا وشذّا عن قاعدة التفريق في السراي . وتعضد السيد ابو الهدى بحضرة العم كما يعبر عنهُ ودفع باتحادهِ معهُ شر معانديهِ في المابين . ومع هذا فالسيد اسعد يعترض اعتراض المشفق احياناً على السيد ابي الهدى لاندفاعهِ في الامور وربما اظهر الضجر من تعبهِ في رتق الفتوق الّتي يفتقها السيد ابو الهدى باندفاعهِ . والسيد اسعد يود من ابن اخيهِ ان يسلك مسلكهُ في التؤدة والدهاء لينجحا في ما اراداهُ ولا يخيبا في شيء ابتغياهُ . وهما في الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فضل باشا والشيخ ظافر . ورتبتهُ روم ايلي قاضي عسكر وعندهُ النشان العثماني المرصع والمجيدي المرصع ورتب اولادهِ لم ينلها كثير من شيوخ العلماء فانهم برتبة استامبول پايه سي الّتي تقارب رتبة البالا او تضاهي رتبة الفريق في العسكريّة . ومرتبهُ الشهري مع اولادهِ ينيف على خمسمائة ليرة . هذا غير ما يأخذهُ من الاحسان والانعام المتكرر في اثناء السنة

وهو ردءٌ لشريف مكة وركن شديد لما بينهما من

الصلة فاستند اليهِ الشريف ومدَّ رجلهُ في عين الزمان غير
مبالٍ باحد واخذ يفعل افاعيلهُ في تلك البقاع الطاهرة ولم
يثنهِ وجوب احترام حرم الله عن ضرب الاشراف فيهِ
حتَّى هاجر من جوار بيت الله قوم لم يحتملوا الضيم والذل
واصبح الحجاز مجتمع الفتن ومستنقع الدماء وكادت تسقط
بذلك فريضة الحج عن الناس واصبحت عرائض شكوى
المظلومين كالعهن يضربون بها سورًا ضربهُ الشريف دونهم
من سبائك الفضة والذهب لا من القطر والحديد . والسيد
اسعد اقنع جلالة السلطان ان العرب جميعهم لا يعصون لهُ
امرًا ولا يخالفون لهُ حكمًا وقد اضطرتهُ هذه الدعوى
الَّتي كانت اقوى الاسباب لقربهِ وعلو منزلتهِ ان لا يزور
المدينة حين سافر الى الحجاز مع راتب باشا منذ اشهر
ليقابل بهِ الشريف ويصلح ذات بينهما فانهُ من البعيد ان
سيدًا من اولاد الرسول يأتي الى مكة ولا يذهب الى
زيارة جدهِ لتأدية الواجب عليهِ وليدعو بانفاسهِ الطاهرة
لجلالة السلطان ان ينصرهُ الله ويؤيدهُ ويدفع عنهُ المكاره

ويوفقهُ لحل معضلات هذه الايام ليؤدي في العمر وظيفة ما أُحيل عليهِ من الفراشة في الروضة الشريفة ليظهر لاهل المدينة التي غاب عنها سنين عديدة نعم الله السابغة عليهِ ليسر المحب ويسوء العدوّ . فان الانسان مهما بلغ من الرفعة والجلال في غير وطنهِ لا يروق في عينهِ كما يروق لهُ بين لداتهِ واترابهِ في بلدهِ ولهذا قال عبد الله بن طاهر لما دخل مصر والياً ورأى عظمة موكبهِ " ليت عجائز بوشنج يشاهدنني اليوم " . وليرى السيد اهلهُ واقاربهُ واملاكهُ في المدينة ولكن منعهُ عن هذا علمهُ ان العرب ينتظرونهُ في طريق المدينة فلا يكاد يصل اليها او لا يكاد يرجع منها والسيد لاينسى ان العرب نهبوهُ مرة وهو ذاهب الى المدينة . وقد بالغ في دعوى نفوذ كلمتهِ في جزيرة العرب حتى قال انهُ لابدَّ ان يضم نجداً الى حكم الدولة فهو يرسل الهدايا الى ابن الرشيد من لدن الحضرة السلطانيَّة ويجعل بها مواصلة مستمرة ووفوداً ذاهبة آيبة ليعلق الآمال بعملهِ دائماً . وجلالة السلطان شديد العناية بهِ وكثير الاكرام لهُ

فانهُ يشرب النارجيلة في الحضرة السلطانية

وهو الذي ارسلهُ جلالة السلطان الى سفير انكلترا في مأموريَّة سياسيَّة ولما قابل السفير خاف على نفسهِ ان يدخل في امر لا يستطيع ان يخطو فيهِ خطوة فاخذ يسعل سعالاً مسترسلاً للتخلص حتَّى اشفق عليهِ السفير وردهُ باللطف والاحتفاء والتأَسف على ما فاجأَهُ من المرض . وربما تعجب السامع من ارسال جلالة السلطان المشهور بالحزم والحكمة شيخاً من المشايخ الذي لا يجول فكرهم الاَّ في دائرة ضيقة من المعلومات الى سفير الانكليز في امر سياسي مهم وما ادراك ما سفير الانكليز في الاستانة . فنقول ان لجلالة السلطان عذرًا واضحاً لان هؤُلاء المشايخ ظهروا امام جلالتهِ في ارقى مظاهر السياسة وذٰلك ان لكل واحد منهم صاحباً من المابينجيَّة يوحي اليهِ جميع ما يصير ولو كان اشارة بالطرف في مقابلة مساعدة الشيخ لهُ عند الحاجة . فاذا سمع الشيخ من صاحبهِ امرًا مهمًّا من الامور السريَّة في السياسة كتب تقريرًا الى جلالة السلطان عقب علمهِ بهِ واشار الى

ذلك الامر السري بما يوافق غرض السلطان فيهِ والشيء اذا صادف هوى في الفؤاد وقع في النفس وقعاً عظيماً فيعتقد جلالة السلطان ان الشيخ قتل السياسة علماً . وربما زاد الشيخ فوضع الخبر في رؤية صالحة رآها فيقصها على جلالتهِ فينتقل الاعتقاد فيهِ من الارض الى السماء . ولهؤلاء المشايخ اناس من بسطاء الاغوات وغيرهم جذبوهم اليهم بالعهود والاوراد فينقلون لهم اخبار جلالة السلطان وعليها يبنون ما يبنون ويلفقون ما يلفقون . وبهذه الشعوذة دخلوا في اهم الامور السياسية وغلبوا الصدور والوزراء وسفهوا آراءهم وعكسوا عليهم تدابيرهم . ونذكر بالجملة قصة من القصص نموذجاً يستدل بهِ القارئ على ما نقول :

عقدت الدولة بهمة الرجل السياسي كامل باشا الشروط المعلومة مع السر درمندولف على جلاء الانكليز عن مصر بعد مدة محدودة تقررت في تلك الشروط وتم الامر فيها وامضت عليها جلالة ملكة الانكليز ولم يبقَ الاَّ امضاء جلالة السلطان ثم سمع احد هؤلاء المشايخ بواسطة ارصادهِ

الموضوعين على جلالة السلطان ان جلالتهُ يتأفف من هذه الشروط فصيحهُ الشيخ بتقرير بني على هذه الشروط خراب الدولة وقيام المسلمين جميعاً ونقض ايديهم من البيعة وغضب النبي صلى الله عليهِ وسلم . فلما أُضيف هذا التهويل الى تأفف جلالتهِ من تلك الشروط قويت عزيمتهُ على الامتناع من الامضاء بعد ان امضت الملكة ولم يلتفت جلالتهُ الى سخط الحكومة الانكليزيَّة والانكليز عموماً من امتهان ذلك الامضاء وذهبت الليالي الَّتي سهرها كامل باشا في إحكام هذه الشروط سدًى ولو تمت لما بقي اليوم احد من العساكر الانكليزيَّة في مصر . والسير على هذا الاسلوب في المسائل السياسيَّة مستمر الى هذا اليوم ويستمر الى ماشاء الله والصدور يبيتون في حيرة من امرهم وما دبروهُ يذهب سدًى والشيخ يرمي فيصيب برمية واحدة ثلاثة اغراض الاول ظهورهُ امام جلالة السلطان بمظهر حاذق سياسي يرجع اليهِ في عويص السياسة والثاني كيدهُ للصدر بنقض ماأبرم والثالث تجليهِ امام الناس بقدرتهِ على ردّ جلالة

السلطان عن رأيهِ لان الناس لا يعلمون الحقيقة بان جلالتهُ كاره لما دبرهُ الصدر وانما الشيخ بكهانتهِ استرق السمع فبنى على ماسمع ما بنى . فماذا يصنع جلالة السلطان وقد احاط بهِ هؤلاء المحتالون واتفق بعضهم مع بعض عليهِ ولم يتركوا لهُ وقتاً يكفي للتنقيب عن احوالهم والتدبير للخلاص منهم فانهم كلما لحظوا ان الاشغال نقصت لديهِ لفقوا في الحال على ذاتهِ الشريفة ما يقلق خاطرهُ وهذادأبهم ولا يزال لان العلاج غير ممكن . وكيف يمكن العلاج الاَّ بعد العلم بوجود المرض وأنى يتأتى العلم بهِ وهم اسوار بعضها فوق بعض فان صاح من ورائها صائح بأن الحال منذر بالخطر قالوا مكيدة اجنبية واوّلوا ذلك الصياح بما ينفعهم ويضر بالصائح . وقد ضاح كثير فدارت عليهم الدائرة لان الصائح البعيد لا يغلب القائل القريب . وانا اكتب هذا وانا على علم بان جلالة السلطان لو قرأهُ وتنبه اليهم لآبوا بالاستفادة مما اكتب

الشيخ السيد فضل باشا المليباري المكي

هذا السيد شهير النسب بالعلوي وهو من اهل مليبار

وقد اختارهُ اهل ظفار اميراً عليهم فتولى امرهم ولما اراد
ان يعاملهم بالاستبداد قاموا عليهِ واعانهم الانكليز على اخراجهِ
من ظفار فجاء الى الاستانة يستصرخ الدولة لاعطائهِ قوة
حربيةً يدخل بها ظفار وكان قدومهُ في زمن السلطان
عبدالعزيز فلم تصغ الدولة الى طلبهِ وكان لهُ صداقة مع
المرحوم الشريف عبد المطلب ايام كان مقيماً بمكة . فلما
جلس جلالة السلطان على التخت العثماني احسن عليهِ برتبة
الوزارة بواسطة الشريف المشار اليهِ فاحضر اولادهُ من
مكة واستقر في الاستانة ولكنهُ لا يزال يقيم الحجة على
السفارة الانكليزيَّة بمملكتهِ الظفاريَّة ولا يزال يكرر طلب
الاستنجاد من الدولة ليعيد امارتهُ عليها . وكان المشايخ
يقبلون يدهُ لشيخوختهِ وشهرة نسبهِ وحسبهِ فكفوا عن ذلك
بعد ان ذهب تشاتم المشايخ بحرمتهم جميعاً . وقد ارسل جلالة
السلطان اليهِ في بيتهِ ناظر الضبطيَّة ناظم باشا مع السيد احمد
اسعد ليبلغاهُ كدر جلالة السلطان منهُ لشيء اخذ عليهِ
فغضب على السيد اسعد وبصق في وجههِ وهمَّ بضربهِ

لتصورهِ انهُ هو الذي لفق عليهِ ما اوجب كدر السلطان منهُ فخرج السيد اسعد من عندهِ مع ناظر الضبطيَّة على هذه الصورة وانتهت المسأَلة على ذلك . وهو عاميٌّ ولكنهُ من المؤلفين ولهُ كتب عديدة منسوبة اليهِ وهي مشحونة بكرامات ابيهِ واجدادهِ . وسنذكر شيئًا من غرابتها في ما يأتي . وهو يدَّعي ان القطبيَّة وراثة فيهم يتوارثها كابر عن كابر منهم ولهذا اشتدت العداوة وعظم التنازع بينهُ وبين السيد ابي الهدى

وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنة الهند وباسلام اهل امريكا واذا وردت عليهِ رسائل من بعض اصحابهِ في الهند بنى عليها تحقيق الامل فيما بشر بهِ وعرضها على جلالة السلطان فاذا سمع السيد ابو الهدى انهُ قدم مكتوبًا جاءَ لهُ من الهند ابطل مفعولهُ . ولكيلا يختص السيد فضل باشا بالهند ارسل اليها السيد ابو الهدى الشيخ كمال الدين المقيم الآن بمصر ولما علم الانكليز بمساعيهِ في الهند اخرجوهُ منها

الشيخ محمد ظافر المغربي المدني

هو من جهة طرابلس الغرب وقد سكن المدينة المنورة

فانتسب اليها وجاء الى مصر مرارًا قبل اتصالهِ بجلالة السلطان بصفة مشايخ الطرق ولهُ طريقة انتزعها من الطريقة الشاذلية وهو يدعو اليها . وكان جالسًا في بعض الايام في مجلس السيد القصبي بطنطا وكان بيد احد الحاضرين بندقيةً يقلبها ولم يدرِ انها محشوة فخرجت منها رصاصة فأَصابت الشيخ ظافر فبقي تحت المعالجة مدة وهو رجل متواضع لين الاخلاق معترف بعاميتهِ متظاهر بالخمول . وسبب اتصالهِ بجلالة السلطان ان اخاهُ الشيخ حمزة كان في الاستانة وكان يتردد على بعض الحشم في سراي جلالة السلطان في زمن المرحوم السلطان عبد العزيز فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على الذين لهم علم بظهر الغيب ومعرفة باكتشاف المستقبل فقال ان اخي الشيخ محمد ظافر لهُ اليد الطولى والقدم الراسخة في هذه الاشياء ولما اتصل الخبر بجلالة السلطان امرهُ ان يدعو اخاهُ من المدينة الى الاستانة فحضر اليها وبشر جلالة السلطان انهُ يجلس على تخت السلطنة في سنة ثلاث وتسعين هجريةً ولم يكد جلالتهُ يصدق هذا الخبر لقرب

الميعاد ووجود السلطان مراد قبله في نظام السلطنة . ولما صدق قوله وجلس جلالة السلطان على التخت العثماني في تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب وزاد الاعتقاد وبقي على حالة التصوف من الزهد في الرتب والنياشين وقد احسن جلالة السلطان عليهِ بها مرارًا فطلب العفو من قبولها . ولكن جلالة السلطان الحَّ عليهِ ان يقبل احدى المداليات فقبلها متكرهًا . وهو الواسطة في استدعاء خير الدين باشا من تونس وتقليدهِ منصب الصدارة. وقد احسن جلالة السلطان على الشيخ بخمسة عشر الف ليرة . وذلك ان جلالتهُ كان مريضًا وكان يتخوف من مرضهِ فأحضر الشيخ احمد اسعد وقدم لهُ هذا المبلغ وقال خذهُ حتَّى لا تحتاج بعدي فبكى ولم يقبلها وقال ما يجب ان يقال في هذا المقام فسرَّ منهُ جلالة السلطان سرورًا عظيمًا . ثم امر بها للشيخ ظافر فقبلها واشترى بها عقارًا لاولادهِ وهم نيف وعشرون من الذكور والاناث وبنى لهُ جلالة السلطان تكيَّة ومسجدًا وبيوتًا بقرب السراي السلطانيَّة وكان جلالتهُ يصلي صلاة

الجمعة في هذا المسجد بعض الاحيان . ولكن جاء جلالتهُ الخبر مرة انهم وضعوا الديناميت هناك فامتنع عن الصلاة فيهِ مع انهُ لم يظهر شيءٌ من ذلك بعد النقب والحفر والبحث والتفتيش الطويل . ولا يزال الشيخ ظافر يقيم فيهِ الاذكار المعتادة وكثيرًا ما يأمرهُ جلالة السلطان ان يحيي في السراي بعض الليالي بالاذكار ويحضرها جلالتهُ بنفسهِ ويذكر معهم ويقول اولاد الشيخ ان جلالة السلطان قبَّل يدهُ مرَّةً . ولو علم الناس مقام الخلافة وقدروها قدرها لاستعظموا هذا الامر جدًّا لان الخليفة رأس الامة المحمديَّة وليس فوقهُ احد من اهل الدين والدنيا ولو نشر الائمة والاقطاب والابدال في مكان لكان الامام فوقهم ولكانوا ممتثلين لاوامرهِ المطابقة للشرع ولكان لهُ ان يقيم الحدود عليهم ان ظهر منهم ما يخالف الشريعة . ولكن هؤلاء المشايخ كبروا انفسهم ومشايخهم وآباءهم امام الخلافة التي اتخذوها لهم آلة في ترويج مقاصدهم وكانهم يمنون على جلالة السلطان بها

ولما رأى الشيخ ظافر ان الاعتقاد فيهِ قد رسخ في

السراي توسع في الامر . فمن ذلك انهُ كان جالساً في الحضرة السلطانيَّة مع السيد اسعد والسيد ابي الهدى وفي اثناء الحديث قام من فورهِ وقال بهيئة الخشوع والخضوع على الخالي وعليكم السلام ورحمة الله وبركاتهُ . فسأَلهُ جلالة السلطان بعد ان قام وقام السيدانِ لهذه التحيَّة العجيبة. فقال ان الخضر عليهِ السلام قد مرَّ فسلم علينا فرددت عليهِ السلام . ولما خرج وبخهُ صاحباهُ وتوعداهُ ان عاد الى مثل ذلك فقال لهما اعذراني فقد اخذني الحال. وقال لجلالة السلطان مرة في اثناء الحرب الروسيَّة قد اشتريت لجلالتكم ملك الروسيا بكيلتين من الشعير . وقد ادخل جلالة السلطان في طريقتهِ واعطاهُ عهدًا

طعن المشايخ بعضهم على بعض

هذا وقد حان ان نقول ما يطعن بهِ بعضهم على بعض بالسنتهم واقلامهم

يقول السيد ابو الهدى عن الشيخ ظافر ان جدهُ كان يهوديًا من اهل سلانيك فاسلم وقتلهُ السلطان محمود لزندقتهِ

وان طريقة الشيخ ظافر خارجة عن القواعد الاسلاميَّة وان
تآليفهُ فيها هادمة للايمان وان صلواتهِ التي الفها لا يفهمها
احد واذا كررها قارئٌ لا يظن احدانها صوت انسان
كقولهِ (يا هو الاَّ هو عن هو يا من هو) ويقول ان الشيخ
ظافر يدعي ان شيخهُ الذي اخذ عنهُ الطريق يصعد الى
السماء فيأكل فيها "المجدَّرة" (وهو لون من الطعام
يصنع من العدس والارز) ويقول ان الشيخ ظافر يعمل
اعمال السفليين في سحرهِ فيتحفظ بالقرآن والعياذ بالله وما
يجري هذا المجرى . وهذا كلهُ مطبوع منشور معروض
على جلالة السلطان مشهور بين الناس في الاستانة ويقول
في عرضهِ ما نمسك القلم عن ذكرهِ . وقد قدَّم رجل اسمهُ
الشيخ ابرهيم القربانجي تقريرًا يتهم فيهِ الشيخ ظافر بكل
الموبقات وينسب اليهِ فيهِ كل المخزيات ويقول عليهِ انهُ
يعمل السحر ويضع عقدهُ وارقامهُ وكتاباتهِ في صرة ويودعها
في مواضع خربة بين المقابر في اسكدار . وقد صدرت
الارادة السلطانيَّة بارسال الباحثين الى تلك الاماكن فجاؤوا

بصرة تحتوي على ما ذكرنا . والشيخ ظافر ينسب هذا كله الى مكايد السيد ابي الهدى . ومما أُخذ عليهِ استدلالاً بالاشتغال بالسحر انهم وجدوا عندهُ صورة جلالة السلطان فوقع لهذا مدة في انحراف وجه الرضا عنهُ

ومن قرأ الكتاب المطبوع المسمى (بتمزيق نقاب التغرير) الذي اغضب السيد ابا الهدى صدور الارادة السنيَّة بالحجر عليهِ ان يدخل البلاد العثمانيَّة بكى على الاسلام وعلى الدولة بعيون الثكلى فقد تضمن من الطعن واللعن في جماعة من المسلمين منهم الشيخ محمد ظافر ما لا يطعن بهِ عابد الله على عابد الشجر ولا المسلم على الاباجيّ والشيخ ظافر لا يقابل هذا الاَّ بطلب الهداية من الله للسيد ابي الهدى

ما يقول احباءُ الشيخ ظافر فيهِ

يقولون انهُ رجل لا يدخل مداخل السوءِ ولا يقصد احدًا بشرّ ولا يسعى وراءَ الانتقام ممن يضرهُ كثير التواضع طاهر المجلس من الغيبة ورع تقي عظيم الاجتهاد ان يتخلق باخلاق الصالحين وفيٌّ لاصحابهِ يزورهم في منازلهم لا فرق

عنده في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم ومحضره
عند جلالة السلطان محضر خير فكم استجلب عفواً عن
مذنب والتمس احساناً لمحتاج ورفع منزلة لمستحق وهو صادق
الولاء لجلالة السلطان مطوي الجوانح على خالص محبتهِ
ومن عاشره يحكم بهذا

قول احباء السيد ابي الهدى فيهِ

يقول المرحوم قدري افندي الحلبي الكاتب الثاني
للحضرة السلطانيَّة الذي جاءَ الى مصر مع درويش باشا
والسيد اسعد في كتابهِ (الكوكب المنير في ترجمة الاستاذ
السيد محمد ابي الهدى افندي الصيادي الرفاعي الشهير)
المطبوع على نفقة احد مريديهِ من شيوخ المشايخ في مصر
ما يأتي

" اما سيدي ومولاي وشيخي واستاذي وقرة عيني
ومرشدي وملاذي وجلاء روحي وسلم ارتقائي وفتوحي
الاستاذ الاكبر والعلم الاشهر حجة العارفين علم العلماء المتبحرين
قوام الطريقة والحقيقة والدين ذو الجناحين وارث جدهِ

الامام الاعظم ابي العلمين سيد اعيان السادة الاشراف
خلاصة الخلاصة من افراد بني عبد مناف سيف الشريعة
المصلت على المبتدعين صمصام الحقيقة المنتدب لخدمة سيدنا
ومولانا وامامنا امير المؤمنين قدوة المشايخ الجبل الراسخ
الكنز المطلسم بانواع الفضائل والفراسة والبحر الخضم المتدفق
بصنوف الفواضل والسياسة المولى الذي استعارت العقلاء
صيقل العقول من آرائهِ الشريفة والنحرير الذي عكفت
طلاب الحكمة والعرفان على ابواب ساحتهِ المنيعة المنيفة
الثابت القدم الهاشمي الشيم الجليل المكانة العلي المساعي
مولاي الصدر الكبير السيد محمد ابو الهدى افندي الصيادي
الرفاعي فسح الله لي وللمسلمين بحياتهِ واعاد عليَّ وعلى جميع
المحبين من فياض بركات اسلافهِ الكرام وبركاتهِ آمين .
فهو كما شاع وذاع وتواتر في جميع الاقطار والبقاع وسارت
بذكرهِ الركبان وثبت في القلوب وشنف الآذان واجمع
عليهِ الموافق والمخالف واستفاض استفاضة نور الشمس رغم
الاعشى المجازف واذعنت لهُ جحاجحة السادة الاحمديَّة في

الشام والعراق وعبق نشر عطر اشتهارهِ فملأ الآفاق رفاعي النسب حسيني العنصر والحسب رجال بيتهِ اعيان السادة الاحمديَّة الذين هم عند من يعلم اعيان السادات وجدودهُ اقطاب الوجود الذين خرق الله لهم العادات بل هو علم البيت الصيادي الذي لو ضربنا عنهُ صفحاً لما رأينا للمآثر الاحمديَّة الثابتة في الموجودات اثراً وشمس سماءِ المجد الرفاعي الذي لو تعامينا عنهُ لما عرفنا لهذا المجد الباهر خبراً "

ومن عجائب اسرار الله ان والدة السيد المشار اليهِ رحمها الله كانت على قدم عظيم من الصلاح لا ئحة عليها انوار النجاح وقد كان يضرب بها وبشقيقتها هناك الامثال لما منَّ الله عليهما من الصلاح والتقوى وحسن الحال وكان ولي الله شيخنا العارف بالله السيد رجب الرفاعي الصيَّادي صاحب كفر سجناء اذا رآها قبل ولادة ولدها السيد المترجم حفظهُ الله يكنيها بهِ وينوّه لها باسمهِ وكان الامر موافقاً لكشفهِ الصادق وبصر سرهِ الحاذق "

"ولما ولد ايدهُ الله سماهُ الشيخ المشار اليهِ وكنّاهُ ونفخ في فمهِ ودعا لهُ وربي بحجر الدلال رضيع ثدي التقوى والكمال وقد اقسمت والدتهُ البرة التقيّة رحمها الله انها ما ارضعتهُ مرة الاَّ وهي على وضوء ولما بلغ ستة اعوام من العمر قرأ القرآن بثلاثة اشهر وفي السنة السابعة اتقن علم التجويد والقراءات وفنونها على الرجل الصالح شيخ القراء بتلك الديار يومئذٍ الشيخ محمود بن الحاج طه وكتب واحسن الكتابة وقرأ الغاية وشرحها في المذهب الشافعي على الشيخ محمود الموماءِ اليهِ ثم لازم غيرهُ من المشايخ فقرأ علم العربيّة وعلم الفقه على مذهب الامام ابي حنيفة النعمان رحمهُ الله تعالى واكثر من قراءة علوم الآداب واللغة والاصول والحديث والتفسير وتوسع في الفنون وحفظ اكثر المتون وتبحر في علوم البلاغة والتاريخ والنسب والبيان والبديع وطال باعهُ في التصوُّف فحل بدقيق تصرفهِ غوامض معانيهِ واوضح مضمرات خوافيهِ وبلغت محفوظاتهُ الى ما يزيد عن مائة الف بيت"

وعلى ذكر حفظ الشعر نذكر شيئاً من ديوان شعرهِ المطبوع الذي قرظهُ الادباء وبالغ في وصف بلاغتهِ الشعراء فمن ذلك قولهُ

كم لسلب الشعور سلسلات شُعرًا لدغهُ فوق لدغة الثعبانِ
رب يوم تلقى بهِ العبد مولى هكذا شأن دولة الديّانِ

وقولهُ

سلوك طريق الرجال الادبْ وخوض الطريقة خوض العطبْ
فمن نازع الشيخ في اهلهِ بذم وامل منهُ الاربْ
كصاعد سطح بلا سلم وطالب علم بقطع الحطبْ
وثاقب سيناءَ في إبرة لعمرك ان ذاك الاَّ تعبْ
لان يد القوم في اهلها تسد على الغير باب الطلبْ
ضلوع الجهالة معوجة تضيق الطريق على من ذهبْ
وسلك الطريق بلا نيَّة عجيب وجهل الطريق العجبْ

وقال مادحاً جدهُ الغوث الجليل السيد احمد الصيادي

رعى الله اياماً تقضت بشيخونِ وحيي لويلات مضينَ بتمكينِ
ليالٍ لنا في ظل استاذنا الذي بهِ العز للاسلام والحق والدينِ

ابو المجد صياد السباع فتى الوغى اذا خاف في البيدا صدور السلاطينِ
عليٌّ جناب شاد آثار اهلهِ بسر فشتهُ الاوليا في الدواوينِ
مغيث اذا ضاق الخناق ومنجد اذا ما اختبا الفرسان بين الصواوينِ
فرقّ لهُ معنى نسيم اللقا كما لهُ راق خمر الارتقا بالفناجينِ
فتى من بني قوم كرام اماجد محبتهم فرض على كل ذي الدينِ

وقال

يا غارة الله طوفي في منازلنا دوماً وحلي لنا ما كان من عقلِ
يا غارة الله ظلي في معونتنا وشرّفينا بخير الخلق والرسلِ
يا غارة الله قومي دائماً ابدًا بنيل ما نرتجي من جملة الاملِ

ويقول احباؤهُ عنهُ ان تلاميذهُ ومريديهِ قد بلغوا عشرة ملايين من النفوس وان الشيخ مقتدر ان يجمع من بلاد العرب ثلاثة ملايين من الفرسان وقد ذكر هذا بنفسهِ لاحد محرري الجرائد الاوربيةَّ وذلك المحرر موجود بمصر الآن فاذا نقصوا اتمهم الله من الملائكة . وقال قدري افندي لرجل زارهُ في المابين وكان في المجلس بعض حشم السراي انك لم تعرف الشيخ ولا وصلت الى ذرة من

معرفة قدره . ان الله القى على قلبهِ علم اربعين كتاباً سماوياً
واصحابهُ يقولون عن تآليفهِ الَّتي اربت على المئة انها
من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات الباهرة لان الشيخ
يشتغل نهارهُ في المابين بما يؤمر بهِ من جلالة السلطان
فاذا رجع الى بيتهِ لم يسع وقتهُ قضاء حاجاتهِ الضروريَّة
وجلوسهُ مع زائريهِ وسمرهُ في الليل مع خاصتهِ وما رآهُ
احد ممسكاً بكراسة يكتب فيها فكيف كتب هذه التآليف
الكثيرة الَّتي تقضى فيها الاعمار الطويلة فهي الكرامة ولاشك
ويعتقد فيهِ خاصتهُ انهُ المهدي المنتظر ويستدلون بان
لفظة (ابو الهدى) عددها تسعة وخمسون بحساب الجمل
ولفظة (مهدي) عددها تسعة وخمسون كذلك وهذا من
اسرارهم الَّتي لا يبوحون بها لعامة الناس وهي مذكورة في
كتاب يعطى لخلصان المريدين ويزعمون ان هذا الكتاب
يحتوي على جميع ما حصل للشيخ وما يحصل لهُ وهو من
كشف القطب الرواس شيخهِ . وينسبون لوالدهِ الشيخ حسن
الوادي كرامات . منها انهُ كان يتحدث في الطريق مع

رجل فأَحس منهُ انكارًا لولايتهِ فلما وصل الى فرن تأَججت نارهُ استوقف صاحبهُ وقال انتظرني ثم اندفع الى ذلك الفرن فدخلهُ بثيابهِ فصاح الناس عليهِ فحلف لهم انهُ لا يخرج حَتَّى يأكل رغيفاً كان في يدهِ ولما اكل رغيفهُ في الفرن خرج عليهم ضاحكاً فوقع الناس على قدميهِ يقبلونهما . ومن كراماتهِ ان رجلاً دعاهُ الى بيتهِ فذهب معهُ ولما وصل الى البيت دخل الرجل ليهيئ لهُ طعاماً وفي اثناء جلوسهِ على باب الدار جاءَ رجل يحمل خيارًا لصاحب الدار فاخذ والد الشيخ ابي الهدى يأكل من الخيار حَتَّى اتى عليهِ ولم يبقَ منهُ الاَّ عدد قليل فخرج صاحب الدار فوجد الجمَّال كالمغشي عليهِ مما رأى فتركهُ حَتَّى افاق ثم سأَلهُ عن حالهِ . قال جئت لك بثمانين رطلاً من الخيار فأَكلها هذا الرجل الجالس وما ابقى منها الاَّ ما ترى . فجمع الرجل الخيار الذي بقي بين يديهِ وحلف بالطلاق ان لا يدعوهُ مرة أُخرى وان لا ينكر كراماتهِ ابدًا . وقد نقل هذه الكرامة السيد ابو الهدى عن ابيهِ في مجلس حافل فقال

عبد المجيد الخردجي وهو في آخر المجلس يامولاي ان
وزن الخيار كان خمسة وثمانين رطلاً فقال الشيخ نعم لله
درك ما اقوى حافظتك . (وخمسة وثمانون رطلاً شامياً
تزن اربعة قناطير وسبعين رطلاً مصريًّا) وكان في المجلس
الشيخ حسين الجسر الطرابلسي المشهور ولما اشيعت هذه
الكرامة بين ظرفاء الاستانة انكرها بعضهم ولما سمع الشيخ
آكل الخيار بانكارهم قال ان لم يسكتوا بلعتهم جميعاً . ومن
كراماتهِ انهُ دخل الى بيتهِ فقيل لهُ لم يبقَ زيت في البيت
فوضع يدهُ في خابية الزيت الخالية فامتلأت وصار الزيت
يسيل منها حتَّى استجار بهِ من في البيت ان يرفع يدهُ المباركة

ما يقول اعداءُ السيد ابي الهدى فيهِ

كان احد حكام فرنسا يقول في كل دعوى تعرض
عليهِ " ابحثوا عن المرأة " فكانوا اذا بحثوا وجدوا اصل
الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقول اعداءُ السيد ابي
الهدى في كل ضرر لحق بالدولة العثمانيَّة اولحق باحد رعاياها
" ابحثوا عن الشيخ " فاذا بحث الباحثون ونقب المنقبون

وجدوا ان جذم كل مصيبة وسنخ كل بليَّة واساس كل فادحة هو من الشيخ المشار اليهِ حتَّى قال بعضهم انهُ للسلطان كالشيطان للرحمن . وقد افرط في اضرارهِ بالناس حتى انك لتراهُ يسعى في اهلاك قرية كانت آمنة مطمئنة بجميع اهلها اذا سمع ان رجلاً منها قال فيهِ كلمة ليست في العرض ولا في الدين لو وجد الى ذلك سبيلاً . فقد سعى في نفي الشيخ رشيد المعصراني الى رودس لكلمة قالها وكره السيد اهل الشام قاطبةً لاجلهِ . وقد وقف نفسهُ وكلف الذين يخطف ابصارهم بنياشينهِ المجوهرة وبرق تأميلهِ الخلب ان يقفوا انفسهم معهُ لاهلاك النفوس وخراب البيوت فاذا نكب بطائفة منهم وقوفهم على حقيقة عقمهِ خلفتهم طائفة أُخرى من المنافقين الذين لا يعلمون حقيقتهُ . ولهذا لا ترى احدًا من هذا العالم ثابتاً على ولائهِ وصحبتهِ فقد ظهر لاكثر الناس انهُ كالشكل العقيم في المنطق لا ينتج خيرًا والادلة على هذا لا تحصى

ولقد بلغت بهِ سرعة الانتقال من حصير التكايا الى

بساط السلطنة ومن لبس زيّ اهل الطريقة الى وضع الوسامات العالية على صدرهِ ان اعتقد ان العالمين غيره ُ هباء منثور وصدق في نفسهِ مايكرهه ُ عنها كاذبًا فوضع نفسهُ فوق النجوم وانزل غيره ُ من الناس منزلة الزاحفات من الهوام احتقارًا وهوانًا وطمحت نفسهُ الى مادون النبوة الَّتي حفظها الله بخاتمها . ويقول بعضهم معذور ان يغتر من اذا كذب قال له ُ المنافقون صدقت واذا ظلم قالوا له ُ عدلت واذا ذمَّ احدًا كفروه ُ واذا انحرف عن احد عذروه ُ واذا تبسم ضحكوا واذا عبس بكوا واذا تحرك قاموا واذا اختلى خلوة بزيد او عمرو قالوا الشيخ في المناجاة . فالذنب على الناس لا عليهِ

ويقولون عنهُ انهُ دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ولما فرغت كنانتهُ من السهام الَّتي اصمى بها قلب الدين خرج الى الساحة الواسعة ساحة الدسائس والفتن فاذا كان يقدّم لجلالة السلطان مائة تقرير في اليوم فاكثرها : بايحائهِ واغرائهِ . وقد لعب كل الادوار في تعظيم

نفسهِ امام السلطان فقال ان تلاميذهُ بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية وقال ان بلاد العرب في قبضتهِ وان الاولياءَ في خدمتهِ وان النبي صلى الله عليهِ وسلم في معونتهِ وان الله سبحانهُ في نصرتهِ وان الاقدار في طاعتهِ. ثم اخذ يلعب دورًا جديدًا بملوك الاسلام وانهم في حاجة اليهِ ليتبركوا بهِ فطلب من سعيد دلّه البغدادي ان يخبر احد الجواسيس ان سفير العجم ميرزا محسن خان اسرَّ اليهِ ان شاه العجم يطلب الشيخ ليزورهُ في طهران فتوقف الرجل ان يكذب على سفيرٍ فكان ذلك موجبًا لغضبهِ عليهِ ونفرتهِ منهُ وانزال البلايا عليهِ من الحبس والنفي والضرب والتهديد بالقتل وذهبت خدمة الرجل ثماني سنوات لهُ تعبًا باطلاً

ولما يئس منهُ اوحى الى جاسوس ان يقول انهُ سمع من سعيد دله ان سفير العجم اخبرهُ سرًّا بطلب الشاه للشيخ ابي الهدى وقدم الجاسوس تقريرًا الى جلالة السلطان بهذا فامر جلالتهُ بالتحقيق والاستنطاق فانكر السفير وسعيد دله ما قيل عنهما واعترف سعيد بان الشيخ طلب منهُ ان

يكذب هذه الكذبة فحلف الشيخ انهُ ماقال لهُ واصرَّ الجاسوس على انهُ سمع من سعيد دله ذلك الخبر وفي هذه الاثناء احتال الشيخ حتى بلغ جلالة السلطان ان السفير لا يمكنهُ ان يفشي اوامر سلطانهِ وانتهت المسأَلة على حصول الشك فيها عند جلالة السلطان وقد انتفع الشيخ بهذا الشك .
ثم اراد ان يوسط رجلاً لامير آخر من امراء الشرق ان يطلبهُ من جلالة السلطان ليكون عندهُ مدة من الزمان فلم يجسر ذلك الرجل ان يعرض على الامير ما ارادهُ الشيخ لعلمهِ انهُ لا يقدر على غش الامير ولان الامير لا تروج عندهُ تلك الاضاحيك لسعة اطلاعهِ وعلمهِ وحزمهِ فنشأَ عن هذا انفعال الشيخ ابي الهدى انفعالاً عظيماً خرج بهِ الى الانتقام من المسلمين جميعاً بدس الدسائس عليهم ولو ادى هذا الى تفريق كلمة المسلمين

وقد اعتاد الشيخ انهُ يعادي كل صدر جالس في مسند الصدارة وكل شيخ للاسلام يتقلد وظيفة المشيخة الاسلامية وقد امضى حياتهُ وهو ينتظر ان يتقلد هذه الوظيفة ووعدهُ

جلالة السلطان بها مرارًا . ولما مرض احمد اسعد عرياني زادهُ شيخ الاسلام كان جلالة السلطان يسأل عن صحتهِ والشيخ ابو الهدى يسأل عن موتهِ وهو الذي ابلغ جلالتهُ وفاتهُ فسكت جلالة السلطان واحضر علي باشا قيراط الطرابلسي وامرهُ ان يذهب الى بيتٍ وصفهُ لهُ وصف خبير بهِ فيطرق على بابهِ فيدعو عمر افندي بدرومي زاده بعنوان شيخ الاسلام ويأمرهُ بالحضور الى المابين . ولما تمَّ تعيينهُ في وظيفة شيخ الاسلام قال جلالة السلطان للشيخ ابي الهدى قد اردت تعيينك ولكن الاتراك اعترضوا بان العادة لم تجرِ ان يتولى شيخ للاسلام من العرب فاخذ الشيخ ابو الهدى من هذا العهد يبث عداوة الاتراك بين العرب حتَّى لقد كتب رسالة وامضاها (ترك واسلام) كأَن الترك على زعم الشيخ ليسوا مِن المسلمين مع انهم مشهورون بالتمسك بدينهم وجعل دأْبهُ مع كل عربي يفد على الاستانة ان يذم لهُ الاتراك ويقبحهم بالقول والفعل اما القول فبلسانهِ واما الفعل فبدسائسهِ التي يحول بها بين المرء ووصولهِ

لغرضهِ الذي جاءَ لهُ فيصدق الرجل كلامهُ لحرمانهِ ولم يدرِ
ان الحرمان مسبب عن الشيخ فان اتفق ان الرجل نال
غرضهُ افهمهُ انهُ خلصهُ لهُ بادماءِ الاظافر فينال غرضهُ ايضاً

وينقل اعداؤهُ عنهُ ان سعيد باشا الصدر الاعظم
السابق جاءَ الى جلالة السلطان يوماً باوراق عديدة من
الشيخ ابي الهدى بعثها اليهِ يطلب فيها اغراضاً لهُ وقال
لا يمكنني ان اقضي كل هذا لهُ . فحفظها السيد ابو الهدى
عليهِ حتَّى اذا امر الصدر ان يزينوا لهُ حجرة في الباب
العالي ليقابل فيها السفراءَ قال الشيخ لجلالة السلطان ان
الحجرة الَّتي كانت معدة لجلوس الصدور العظام وكانت
مباركة بروحانيَّة سلاطين آل عثمان ومشهورة بان انتصارات
الدولة ظهرت منها خرج منها الصدر اليوم واي تفاؤل انحس
من هذا فأمر جلالة السلطان في الحال باحضار سعيد باشا
وسأَلهُ عن نقلتهِ . فقال نعم فضربهُ جلالتهُ بيدهِ وبقي
ثلاثة ايام محبوساً في السراي لا يعلم أَفي الصدارة هو ام
معزول عنها

وينقلون عنهُ ان عزيز باشا الطبيب في المابين تكلم فيهِ بعض الكلمات في مسأَلة لا تذكر فحقد عليهِ ولما زار جلالة السلطان المستشفى المعد للعساكر في يلديز كان يقف جلالتهُ عند المرضى ويسأَلهم فوصل الى مريض وسأَل عن اسمهِ فقال عزيز باشا . حميد . فسأَل عن مرضهِ فقال مرض الاعصاب . ولما سمع ابو الهدى بهذا قال لجلالة السلطان ان عزيز باشا لم يحفظ امام جلالتكم ما يجب عليهِ وعلينا من جلال شأْنكم حيث سمى المريض بحميد وادعى انهُ مريض بمرض الاعصاب . فغضب جلالة السلطان وامر الاطباء ان يفحصوا المريض ففعلوا وقرروا انهُ مريض بداء في اعصابهِ فامر جلالة السلطان بنفي عزيز باشا بعد ذلك

ويقول اعداؤُهُ ان لهُ مع كل كبير في المابين ودوائر الحكومة عداوات وحزازات ومع كل عظيم في كل بلدة وقد افتى واحد وعشرون عالمًا من علماء مصر بتكفيرهِ وزندقتهِ فهو يريد اليوم ان يخسف الارض بمصر . وقد سوَّد صحيفة المصريين قاطبةً امام جلالة السلطان بغشهِ وتدليسهِ ولو

كان الشيخ كالناس لعذر العلماء لان الجواب في الفتوى على قدر السؤال . والعلماء افتوا على سؤال فيهِ يقول السائل " ما قولكم فيمن اعظم الفرية وكفر القطب الرباني والغوث الصمداني الامام الاوحد والسيد الامجد محيي الدين عبد القادر الكيلاني رضي الله عنهُ "

فافتوا بكفر من يرتكب هذا الذنب العظيم وكان يلزم ان يغضب الشيخ على محرر السؤال لا على معطي الجواب ولكن الله قضى ان لا ينجو احد من ضررهِ فاصاب علماء الازهر بشؤبوب من شرهِ

كان لنا في نشر " ما هنالك " مقصدان احدهما ان يتنبه اولو الامر فيتداركوا الدولة العثمانية ان يقع على نصفها الثاني ما وقع على نصفها الاول من انفصال بعضهِ واضافتهِ الى الدول واستقلال البعض الآخر خشية ان تزول دولة كان لها المكان الارفع بين الدول والدرجة العليا بين الممالك والقول المسموع في مشاكل السياسة فان

اصابها رزء بعد الذي مضى منذ عشرين سنة فليس عن خور في جنودها وقوادها الذين شهد العالم اجمع ببسالتهم وبتراميهم على الموت لا يبالون وقع عليهم او وقعوا عليهِ وبشهرتهم في الفنون الحربيَّة ولا عن جهل في رجال السياسة العثمانيَّة الذين اقر بدهائهم حذاق السياسة من الاوربيين واعترفوا لهم باصابة الغرض في ظلمات المشكلات ولكن عن خيانة شرذمة من الجواسيس حولوا همة جلالة السلطان عن مصالح الدولة العامة الَّتي جعلنا اهمالها تحت رحمة الدول اليوم الى مسألة خاصة وهي القاء الخوف والرعب في قلب جلالتهِ من كل فرد من افراد الرعيَّة. فكدروا عليهِ صفاءهُ وشغلوا بالهُ ولفتوهُ عن كل مصلحة للدولة حتَّى جعلوا تقرير جاسوس واحد لديهِ اهم من معاهدة اوربيَّة فاخذ بناء الدولة يتداعى. قال احد رجال السياسة لصاحب لهُ عثماني " اني اتعجب دائماً من بناء هذه الدولة العثمانيَّة تنصب الدول عليها المجانيق لهدمها من الخارج ويضرب حكامها بالمعاول فيها من الداخل وهي قائمة لا تقع "

صدق الانكليزي لم تهدمها المجانيق والمعاول ولكن هدمتها
الاوراق اوراق الجواسيس فسبحان القادر على كل شيء .
ولما كانت الدولة مدرعة بنفوس السلاطين العظام لم يقوَ
عليها شيء ولما انعكست القضيَّة وصارت الدولة والملة والامة
والكعبة والشريعة والكتاب والسنة دروعاً لوقاية نفس
السلطان اصابنا ما اصابنا واصبحنا تحت رحمة الدول يفعلنَ
بنا ما يردنَ واصبحت اساطيلها على شواطىء البلاد العثمانيةَّ
تنتظر الاوامر فينا وحسن باشا الجلاد يقول لعزت افندي
ياكذا وكذا تقول الملة والامة . والملة والامة والدنيا والآخرة
هي السلطان . صدق الجلاد فانهُ لم يبقَ الاَّ جلالة السلطان
والشيخ ابو الهدى يفتي لجلالتهِ بان اهلاك الثلث في اصلاح
الثلثين جائز . ولو سمع جلالة السلطان قولهُ لم يبقَ في
الدولة على هذا الحساب بعد ثمان وثلاثين فتوى متتابعة
الاَّ الشيخ والجلاد . وانهُ لمن نحوسة الطالع ان بقينا حتَّى
رأينا دولة الاسلام في الاحتضار تئن موجعة على ايدي
هؤلاء المشايخ الذين يبخلون عليها في احرج الاوقات

بكراماتهم التي ملأُوا بها الكتب وما كان احوجنا الى استيقاف الخضر عليهِ السلام وهو يسلم على الشيخ في حضرة جلالة السلطان لالتماس المساعدة منهُ لدولة الاسلام . وَهم الشيخ لا يرى الخضر الَّا فوق الاصفر الرنان . وعلى هذا فقد يئسنا من القصد الاول لوجود هذه السدود بين الامة وجلالة الخليفة نائب الرسول . فان نفذ منها صوت ناصح من اهل الاستانة كان الجواب ضرب الرقاب ولو كان القرآن الآمر بالنصح مفتوحاً على يمينهِ والسنة الآمرة بالمعروف منشورة على يسارهِ

اما المقصد الثاني فهو ان يعلم المصريون والعثمانيون حقائق الامور في الاستانة وما وصلت اليهِ الدولة الَّتي قاومت اوربا وحدها ستة قرون من الاضمحلال الذي سترهُ الساترون باوراق الصحف عن العيون فيسعى المصريون مع العثمانيين الاحرار المعتصمين بالبلاد الحرة الى استرحام جلالة السلطان في انفاذ ارادتهِ السنيَّة بنشر القانون الاساسي واستدعاء مجلس المبعوثان . فاخذ بعض من لا وقوف لهُ

على شيءٍ من احوال الدولة يرمينا بالتعصب تارةً والمبالغة أُخرى حتَّى قامت الحوادث تشهد على صدق قولنا فانصفونا ونعم المنصفون ونحن لم نذكر الَّا قليلاً من كثير والله يعلم ان الامر فوق ما كتبنا ولنرجع الى ما يقول اعداءُ السيد ابي الهدى فيهِ فنقول

يقول اعداؤهُ ان لهُ اطوارًا متناقضة مع جلالة السلطان فتارة يمدحهُ ويقول "ربي يحفظهُ هو في جيبي" وتارة يقول فيهِ ما ينافي ما يجب عليهِ من الاخلاص لجلالتهِ لنعمهِ السابغة عليهِ . فان السلطان يجري عليهِ وعلى اخويهِ الشيخ نور الدين صاحب رتبة البالا والشيخ عبد الرازق صاحب رتبة اسلامبول بايه سي وابنهِ حسن خالد بك صاحب الرتبة الاولى خمسمائة ليرة في كل شهر . والشيخ ينفق هذا كلهُ في معاداة الناس واضرار عباد الله ودس الدسائس وربما احتاج فوق ذلك فاستدان برهن جواهرهِ . ومن غريب ما وقع ان جلالة السلطان سمع انهُ رهن جواهرهُ في صندوق الايتام على الفي ليرة وكان الشيخ مكسور الخاطر

لان جلالتهُ لم ينفِ لهُ رجلاً ناصبهُ بعض العداوة . فاراد جلالتهُ استرضاءهُ فاحضر الجواهر ووضعها في سلة كما توضع الفواكه وجعل عليها اوراقاً تسترها وبعثها اليهِ . فظن الشيخ انها فاكهة ففتحها فوجد فيها جواهرهُ الَّتي رهنها . والشيخ يرسل كل يوم صباحاً ابنهُ حسن خالد بك وهو من اذكى الاذكياء الى المابين فيمر في وقت قصير باصحابهم والمتفقين معهم فيخطف بمهارتهِ اخبار السلطان من المساء الى الصباح ويرجع الى والدهِ بسجل الحوادث كما يرجع المخبر الى جريدتهِ . فيأخذ الشيخ في ترتيب اعمالهِ عليها ويلقي على الجواسيس ماينبغي ان يكتبوهُ في يومها وينتظر استدعاءهُ الى السراي فاذا جاءَ لهُ الطلب بالحضور اليها ذهب فوضع مقاصدهُ مواضعها فلا يصدر من المابين الاَّ ما كان موافقاً لرأيهِ . وربما قضى اشياءَ كثيرة باظهار كراهتهِ لها فانهُ يعتقد ان جلالة السلطان لا يثق بهِ ولا يأْتمنهُ وانما يخافهُ وليس بقادر على ايذائهِ للشعوذة الَّتي تمكن بها ولاسرار واوراق يحفظها عليهِ عندهُ

منها فتوى عرياني زاده شيخ الاسلام الاسبق بخلع
جلالة السلطان . والحقيقة ان المرحوم عرياني زاده لا يجسر
ان يفتي بخلع جلالتهِ مطلقاً لخوفهِ منهُ ولاحسانهِ عليهِ . ولكن
بعض المحتالين المتفقين مع الشيخ ابي الهدى كتب سؤالاً عن
ناظر وقف خرَّبهُ واضاع ريعهُ . وقدمهُ الى عرياني زاده
فحصل منهُ على الجواب بعزل ناظر الوقف . وكان مقصد
السيد ابي الهدى من هذا ان يضر شيخ الاسلام ليعزل
فيتولى المشيخة فلم تنفعهُ الفتوى في هذا ونفعتهُ في شيء آخر
وهو خوف السلطان من وجودها عندهُ . ثم افهموا جلالتهُ
ان هذه الفتوى كافية في خلعهِ للصفة الجامعة بين ناظر
وقف وحاكم امة وجلالتهُ يخاف من الكلام فيها ومن كل
فتوى شبيهة بها . ولهذا ضيق على شيخ الاسلام بالجواسيس
تضييقاً تكره لهُ الحياة مع ان الخوف لا ينحصر في شيخ
الاسلام وحدهُ لانهُ يفتي على سؤال والجواب في الكتاب .
واصغر مفتٍ من احقر قرية وابو حنيفة وابو يوسف وشيخ
الاسلام سواءٌ في هذا لان الافتاء ليس من عندهم حتى يتفاوتوا

بهِ وانما هو الشرع فكان ينبغي ان جلالتهُ يخاف من الشرع نفسهِ لا من شيخ الاسلام وحدهُ

وقد تعب الناس من تقديم التقارير في السيد ابي الهدى وهي لا تزيدهُ الاَّ قرباً ولا اظن ان احداً يقدر على اسقاطهِ من مركزهِ . وهو لا يغيب عنهُ شيءٌ مما ينطق السلطان بهِ ليلاً او نهاراً لان جلالتهُ امر المابينجيةّ وغيرهم من الذين يقفون على الحجرة السلطانيةّ انهم يقفون وراءَ الباب كلما دخل واحد ايًّا كان ويضعون آذانهم عليهِ للنداء عليهم وقت الحاجة الضروريةّ فلا يعزب عنهم قول يقال . ولذلك ترى الاخبار في السفارات باوقاتها . وقد اضرهذا بالدولة كثيراً وسببهُ التحذر والخوف وعدم الثقة باحد من المخلوقين وقد اسرَّ السلطان الى احد وكلاء الدولة حديثاً فوجدهُ مشاعاً فعاتبهُ على ذلك وقال لهُ قد اشعت ما اسررتهُ اليك وقدمت على امر اوجب سخطي عليك ولا اشك انك القائل المشيع فانهُ لم يكن احد الاَّ انا وانت فقال الوزير "والآذان التي على الباب يا مولانا"

قلنا اننا كنا نرمي الى غرضين في مقالاتنا . الغرض الاول تنبيه اولي الامر الى ما هم فيهِ من وشك السقوط في الخطر والدولة معهم . والغرض الثاني تنبيه الامة الى الحال الَّتي وضعها اولو الامر فيها فيئسنا من الغرض الاول بما نسمعهُ اليوم ونراهُ . واما الغرض الثاني فقد نجحنا فيهِ كما بيناهُ . ومن بوادرهِ ان جماعة من فضلاء المصريين دفعهم الاشفاق على الدولة والملة الى طلب غرض هو المنقذ الوحيد لها الآن مما أَلمَّ بها وهو نشر القانون الاساسي واستدعاء مجلس المبعوثان . وشرعوا في تحرير ذلك بصورة نصيحة اسلاميَّة لمقام الخلافة فاحجم بعضهم ما انذرهم بهِ خبير ان لا يؤمن والحال على ما نراهُ من فوز المشايخ ان يوجهوا تلك النصيحة الى غير الغرض المقصود منها فينعكس الامر ويذهب تعبهم في منفعة المشايخ وتكون نصيحتهم من جملة ما يجهز على الدولة

وهذه صورة النصيحة والامر لله

دعانا الاسلام الذي انت خليفة النبي عليهِ والبيعة الَّتي

لك في اعناقنا ان نعرض على سدتك النصيحة خالصة من جميع الشوائب الَّتي تهجس في الخواطر

والنصيحة للسلطان من اقوى قواعد الايمان خصوصاً في وقت اصبح الاسلام فيهِ على شفا الخطر

وانت ياخليفة الرسول الملجأُ الوحيد اليوم للاسلام واهلهِ فهو واقف امامك وقفة الراجي يمد اليك ايدي الملايين من النفوس لتنجيهُ بعزيمتك المشهورة وحكمتك المأثورة ويدك البيضاء

وجميع المسلمين في المشارق والمغارب يتحدثون في هذا الوقت بوشك عثرة الدولة الَّتي هي روح الاسلام اذا لم تجد من جلالتك يدًا ترفعها

وما ترتفع الممالك وتصان الدول الاَّ بالاصلاح الذي لايجد الاجنبي سبيلاً من خلالهِ للتداخل في الشؤُون

وانت ياغياث الملك — اصلح الله بك وعلى يديك — كنت اول من ادرك هذا السر منذ استويت على العرش العثماني فدبرت العلاج وزينت جلوسك السعيد بالقانون

الاساسي ومجلس المبعوثان ونحن معاشر العبيد المخلصين نرى مع بقيةً رعايا السلطنة ان الوقت قد حان لمباشرة ذلك والسير عليهِ وقاية للدولة وصيانة للملة

وقد وجب علينا فرضَ عينٍ ان ننبه الى ذلك لتمكننا من التصريح بما يهمس بهِ كل مسلم في دار الخلافة وولايات السلطنة ولا يقدر على الجهر بهِ خوف السعاية بقلب الحقائق. ونحن نسمع وجيب قلوب المسلمين في كل صقع من الخوف على مركز الدولة

ولا نرى لمؤمن وجه اعتراض علينا في اقدامنا على العرض لسدتك بذكر ما يتألم منهُ المسلمون من الحالة التي وصلنا اليها قال الله سبحانهُ وتعالى "ولتكن منكم امة يدعون الى الخير"

فعلى هذا النص الصريح قمنا بالعرض لسدتك وعلى هذا النص الصريح ترجمنا عما يتردد في نفوس المسلمين قاطبة والاسلام جسم واحد اذا اصاب عضواً منهُ شيء عم الالم سائر الاعضاء. فمسلم مصر يتألم لما يتألم لهُ مسلم الاستانة. ومسلم

الشرق يتألم لما يتألم لهُ مسلم الغرب . والله عز وجل يقول " انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله"

كنا وعدنا ان نأتي على ما يقولهُ اعداء السيد ابي الهدى فيهِ ولكن عدلنا عن هذا الآن كراهة ان يستقبح الناس منا التطويل عليهم بما لا يعنيهم من ذكر رجل لا يهمهم ثبت نسبهُ ام لم يثبت أبعدهُ السلطان أم قرَّبهُ مدحهُ الشعراء أم ذموهُ غلب خصومهُ أم غلبوهُ صحت كرامة ابيهِ أم لم تصح . ومع هذا استفدنا من ذلك التطويل فائدة واحدة وهو علمنا بان الزمان متشابه الحوادث وان فصلت بينها القرون العديدة

هذه الاستانة دخلها السلطان محمد الفاتح واهل الحل والعقد في حكومة الروم يتنازعون بينهم على ايهم يتقدم الآخر في المجلس المنعقد للنظر في دفع الفاتح عنهم . وهذه الاستانة اليوم على بابها اساطيل الدول وفي وسطها سفراؤُها يجتمعون ويفترقون على المداخلة في امور السلطنة . وهذا

صدر الدولة يفرُّ الى السفارة الانكليزيَّة خائفاً يترقب .
وهذا وهذا مما يسيل تامور القلب من العيون والسيد ابو الهدى يخاصم ويجادل ويطاعن ويلاعن ويحرم نفسهُ النوم ويحمل عليها اللوم ليجبر الناس على التصديق بصحة نسبهِ .
ولو بلغ موسى الكاظم عليهِ السلام ان رجلاً طعن في نسبهِ لم يزد على قولهِ الله اعلم فان الانساب من الامور الَّتي يوكل امرها الى الله اللهمَّ الَّا ان يكون للسيد في هذا الافراط الذي كان يستغنى عنهُ بما كسبت نفسهُ من الافعال الجميلة سر من الاسرار ونحن على اثرهِ حتى نكشفهُ .
وقد آن ان نختم فصول المابين بذكر جلالة السلطان وحياتهِ الخصوصيَّة في السراي السلطانيَّة

﴿ السلطان ﴾

هو السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان وخلفائهم . ولد في اليوم السادس من شهر شعبان المُعظَّم من سنة الف ومائتين وثمان

وخمسين وجلس في الثلاثين من شهر اغسطس سنة ١٨٧٦
على سرير السلطنة العثمانيّة "بالارث والاستحقاق" ويراد
بالارث في هذه العبارة المستعملة رسميًا السلطنة وبالاستحقاق
الخلافة. وقد استقرت الخلافة الاسلاميّة في هذا البيت
الرفيع الذي حفظ بيضة الاسلام ستة قرون وذلك من
عهد السلطان سليم فاتح مصر الذي بايعهُ الخليفة العباسي
بالخلافة بعد ان استفتى السلطان العلماء في الحالة الّتي وجد
عليها الخليفة العباسي من عدم السلطة في امور الملك. فانهُ
كان في مصر ايام الملوك الجراكسة كشيخ الطرق
الصوفيّة لا يعقد ولا يحل وليس لهُ الاَّ ان يقول لمن يتولى
منهم وليتك على ماوراءَ بابي . فافتى العلماءُ ان الخلافة
لا بد ان يكون لها السلطة العامة فبايع العباسي السلطان
سليم الخليفة الاول ولكنهُ لم يتلقب بالخلافة بل تلقب
بخادم الحرمين الشريفين * واول من تلقب بالخليفة

* يروى انهُ كان يصلي في الحرم بمكة والخطيب يدعو لهُ و يقول
"مالك الحرمين الشريفين" فاوقفهُ وقال بل "خادم الحرمين
الشريفين" فصار ذلك لقباً لهُ

السلطان سليمان القانوني وبقيت الخلافة بعد ذلك لاتذكر الاَّ مع الالقاب الَّتي تضاف الى اسماء السلاطين. وكان السلطان منهم يذهب عند التولية الى جامع ابي ايوب الانصاري وهناك يقلده ُ نقيب الاشراف السيف وهذا الذي كانوا يسمونهُ البيعة. ولما اراد اهل الحل والعقد خلع السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد نقلوا السلطان مراد ليلاً الى ديوان السر عسكريَّة واتفقوا ان يبايعوه ُ البيعة الشرعيَّة الَّتي تعقد بها الخلافة توثيقاً لمشروعهم. فقام حسين عوني باشا وكان يرى على وجه الشريف عبد المطلب نيَّة التوقف في البيعة وقال مَن لم يبايع هذا — واشار بيدهِ الى السلطان مراد من الحاضرين — في هذا المجلس ضربت عنقهُ. فبايعهُ اهل الحل والعقد على العمل بالكتاب والسنة

لا يظن القارئ انا خرجنا عن الموضوع بذكر قصة تاريخيَّة فانا ماقصدنا ذكرها الاَّ لانها لا تخلو من فائدة مهمة ولكي يعلم الناس ان الخلافة جرت على الوجه الشرعي في

السلطان سليم والسلطان مراد

ولنرجع الى ذكر جلالة السلطان فنقول هو نحيف الجسم ربعة اوتحت الربعة في الرجال عصبيُّ المزاج قويُّ العارضة متوقد الذكاء شديد التيقظ والحذر على نفسهِ كانهُ يرى انهُ نصب لهُ في كل خطوة مكيدة . وقد بذل جميع اوقاتهِ وجزءًا عظيماً من امواله في المحافظة على نفسهِ بما لم يسمع بمثلهِ واستعمل لذلك ما يبعد ان يخطر على البال من افانين التفرقة بين الناس حَتَّى صار جمعهم لديهِ مفردًا واستحال ان تقع عليهم صيغة الجموع فالكل هو والواحد هم . وقد بلغ بذكائهِ في اساليب التفرقة الى ما لم يحط مكيافلي بهِ علماً فابعد عن الاستانة مِنَ اهل الحل والعقد من يزدوج وابقى فيها من يعلم انهُ ينفرد . وقد جرت عادتهُ ان يعد كل وزير في الوزارة بالصدارة حَتَّى لا يعيش الصدر بينهم مستريحاً وحَتَّى لا يجد فرصة من مكائدهم ليفتكر في خلع السلطان . ولهذا كره الصدور الذين ذاقوا تلك المرارة ان يقبلوا الصدارة

وكثيراً ما يستدعي الصدور المعزولين ويختلي بهم
على علم من الصدر المنصوب ليكون عيناً عليهم لا تنام
وقد استدعى احدى الليالي المرحوم خير الدين باشا الى
المابين ودخل بهِ الى حجرة بعد حجرة بعد أُخرى وامر
الحاشية ان يغلقوا جميع الابواب فأَخذ الصدر المعزول
يعظم في نفسهِ ماسيلقيهِ عليهِ جلالة السلطان من الاسرار
المهمة . فجلس معهُ مدة طويلة والحديث كلهُ في الطيور
والعصافير وخرج وهو لايدري على اي شيءٍ بنى جلالتهُ
هذه الخلوة بتلك الصورة العجيبة

ويقول العارفون بحدة ذكائهِ وقوة عارضتهِ ودقة
نظرهِ انهُ لو صرف مِنْ عنايتهِ بالمحافظة على نفسهِ جزءًا
قليلاً خالصاً لاتشوبهُ تلك المحافظة في شؤُون الدولة لم
يصبها ما اصابها . ولكنهُ مهما اعطى من عنايتهِ للدولة
فالمقصود الحقيقي منهُ التحرز على نفسهِ . وهو قليل العناية
بالمطاعم والمشارب واللذات وليس في حياتهِ وعيشتهِ شيءٌ
شعريٌّ على قول الافرنج بل كل افعالهِ واعمالهِ جد في

جدّ . وقد ذكر احد الوزراء في حضرتهِ نكتة لطيفة
ليضحكهُ بها فحوّل وجههُ عنهُ ولم يخاطبهُ مدة بقائهِ في
المجلس . ولا يشرب الآن الخمر كما يزعم الزاعمون لانهُ
يمنعهُ عنها ما يعتريهِ في اكثر الاوقات من الصداع ولانهُ لا
يرضى ان يفقد بها جزءًا من تيقظهِ وحذرهِ على نفسهِ .
ولا ينام جلالتهُ في حجرة مرتين متواليتين . ولجلالتهِ
كلب عظيم الجسم يحرسهُ في الحجرة التي يقع عليها اختيارهُ
للنوم فيها . وهو يصب الماء البارد على جسدهِ ثلاث مرات
في اليوم ولا يستغرق في النوم وربما لم يجاوز نومهُ اربع
ساعات في الليل . وكان لجلالتهِ جارية شركسيةً اسمها ملك
وعمرها تسع سنوات تباشر خدمة جلالتهِ . فوقف يصلي
بعض الاوقات وكان امامهُ مرآة فرأى في المرآة ان
الجارية خطت خطوة من مكانها . وكان جلالتهُ قبل
الدخول في الصلاة قد وضع المسدس الذي تعود حملهُ
في موضع من الحجرة . فخرج من الصلاة ورتب على تلك
الخطوة التي خطتها الجارية آخر ما يراد من المسدس وامر

باستنطاقها . فقامت السراي وقعدت وانتهى الامر بنفي الجارية وخمسين من الجواري . والسراي لا تخلو داخلاً في اكثر الاوقات من هذه الحركات واذا تعطلت الاشغال في المابين اياماً عرف الناس انهُ في الداخل مايشغل عن الخارج . وقد قال احد عقلاء الوزراء ان جلالة السلطان وقف حياتهُ على حفظ حياتهِ فلم يبقَ لهُ ولا للرعيَّة شيءٌ منها

ولا يعرف جلالتهُ من اللغات الَّا اللغة التركيَّة والفاظاً قليلة من اللغة العربيَّة على لهجة اهل الحجاز اخذها من افواه الخصيان السودانيين في الحرم السلطاني . ويفهم جلالتهُ جملاً من اللغة الفرنسويَّة لطول استعمالها امامهُ مع السفراء . وهو من اغنى ملوك الارض الآن ولم يجمع سلطان عثماني ماجمعهُ من الاموال وامتلكهُ من الضياع . وقد كان من اعظم الاسباب لنفاد ثروة الاهالي هذه الضياع الواسعة الَّتي امتاز من يشتغل فيها باعفائهِ من العسكريَّة وكثير من الاموال الاميريَّة فعمرت تلك الضياع وخربت

البلاد ونهب نظارها ومديروها ثمانية اعشار ما يجنون منها والخزينة الخاصة لا تحصل الاَّ على اثنين من العشرة من دخلها . ومن شدة التحرز والتوقي صار جلالتهُ لا يثق باحد مطلقاً قريباً كان او بعيدًا . وقد رأى مرة من نافذة قصرهِ احد مربي نجلهِ سليم افندي يكلم عسكريًّا فامر في الحال باستنطاقهما واشتغل جلالتهُ بهذه المسأَلة اسبوعاً وهما مسجونان . وهو كثير التردد ولكنهُ اذا عقد العزيمة على امر فهو الحكم البت والقضاء الحتم . وهو شديد التأْثير على من يحادثهُ فلا يخرج احد من عندهِ الاَّ راضياً ولكن هذا الرضى لا يبقى الاَّ ريثما يلاقي الخارج داخلاً بعدهُ ويبلغهُ ما سمعهُ من المقربين عنهُ في غيبتهِ فينقلب الرضى حنقاً وغضباً . ومن هذا ان احد الوزراء كان جالساً امام جلالتهِ فجاءت القهوة فاخذها جلالتهُ وناولها لهُ بيدهِ فقام الوزير وقعد وركع وسجد شكرًا على هذه العناية وكان السلطان يلاطفهُ بكلام الذ من البشرى . ثم قابل الوزير بعد هذا المجلس صاحباً لهُ دخل وراءهُ فذكر لهُ صاحبهُ

القهوة واتبعها بما سمعهُ في غيبتهِ من فلان وفلان . فقال الوزير اني لما اخذت القهوة حسبت الف حساب فالحمد لله على اكتفائهم بالسباب

ولولا التحرز والتوقي اللذان استغرقا اوقاتهُ وامواله لكان اول سلاطين آل عثمان قدرًا واكبرهم شأنًا . والظاهر ان هذا التحرز ابتدأ معهُ من ايام عمهِ حين امر بالتضييق عليهِ وعلى اخيهِ السلطان مراد بعد ان تكلم نابليون مع السلطان مراد على المائدة في باريز بحضرة عمهِ السلطان عبد العزيز كلمات بالفرنسوية يؤانسهُ بها . فتخوف السلطان عبد العزيز مِنْ هذا وامر في الحال بالتضييق عليهما ونقلهما من قصورهما الى بيوت صغيرة أُحيطت بالجواسيس . ثم اذا أُضيف الى هذا ما رآهُ بعينهِ من خلع عمهِ واخيهِ قويت الاسباب الموجبة للخوف . ولكن للامة عليهِ حقًا تطلبهُ منهُ حفظًا لراحتها فانهُ حصر الامور جميعها صغيرها وكبيرها تحت مراقبتهِ ونظرهِ وعدم تسليم شيءٍ منها لاحد من كفاة الدولة . ولهُ نوادر في الاحسان عجيبة فانهُ يعطي

لشخص خمس ليرات مرة ثم يعطيهِ خمسة آلاف ليرة مرة أُخرى . وهو شديد الخوف من الكوليرا لان امرأة اسمها ماهتاب من الضاربات بالودع و بنتها مقيمة في السراي عندهُ الآن اخبرتهُ قبل جلوسهِ على سرير السلطنة انهُ يتولى الملك ويخشى عليهِ من الكوليرا . فلما وقع بعض الاصابات في الاستانة العام الماضي واشتبه الاطباء بها نفى الذين نفوها واحسن على الذين اثبتوها لان نفيها يدعو الى اهمال التوقي ولا يخفى ما فيهِ من سوء النيَّة . هكذا يقال وهي لا تزول من الاستانة لانها اصبحت من اسباب الزلفى والقربى

خلع السلاطين

ان جلالة السلطان عبد الحميد شديد الرغبة في ان يتصف بالحزم والتوفير وحسن الادارة والتدبير فلم يبنِ كما بنى اسلافهُ العظام من شامخات القصور الَّتي استنزفت اموال الدولة . وهو من المحافظين على بقاء القديم على قدمهِ

فلا يسمح بما يسميهِ اهل العصر بالمحسنات العصرية كالكهربائية والتلفون وما اشبه ذلك ويقول بعضهم ان السبب في الامتناع عن اعطاء الامتياز في التلفون كراهة قرب المواصلات بين افراد الرعيَّة لان المقربين من الحاشية افرطوا في اظهار خوفهم على جلالتهِ من رعاياه الامناء الصادقين حتَّى دعاهم هذا ان جعلوا الجبن من ابهى ما يتزينون بهِ . وصار احدهم اذا رأى في الحضرة السنيَّة ورقة مكتوبة بالمداد الاحمر وقع مغشيًّا عليهِ لمشابهة المداد الاحمر بالدم

ولجلالتهِ غرضٌ مهمٌّ يسعى وراءهُ ولكنهُ يخشى نشرهُ قبل اخذ الاحتياطات لهُ وهو حصر الوراثة في اكبر انجالهِ . وانهُ لأحسن الاعمال المفيدة للدولة والرعيَّة . ولو التفت الناس الى التاريخ لفتةً واحدة لوجدوا ان هذا البيت الكريم تأسس على هذه القاعدة من ايام السلطان عثمان الاول . وما زال الارث في السلطنة جاريًا عليها مدة ثلثمئة سنة الى السلطان احمد . وقد تولى السلطنة على هذا النمط

اربعة عشر سلطاناً عثمانياً وكان بقيَّة الاخوة يتولون مناصب الدولة . وهذه امثل المزايا التي فقدتها الدولة والرعيَّة فاصبح ولاة عهودها يعيشون بين الجواري والخصيان والخدم فاذا جلسوا على سرير السلطنة كانوا كمن خرج من ظلمة شديدة الى نور باهر يغشي البصر دفعة واحدة الاَّ من وهبهُ الله من نور البصيرة ما يعينهُ على هذا الانتقال الفجائي . واستمر ولاة العهود على هذا الاسلوب يتدربون على اعمال الدولة نحو مئتي عام حتَّى ثار بعضهم على السلطان محمد الفاتح فاراد أن يدرأ عن نفسهِ وعمن بعدهُ فسنَّ قانوناً اباح فيهِ للسلاطين ان يقتلوا اخوتهم عند ارتقائهم سرير الملك . وجرى الامر على ذلك يتوارثونهُ كابراً عن كابر حتَّى تولى السلطان احمد الملك وكان عمرهُ اربع عشرة سنة ولم يولد لهُ ولد فابقى على اخيهِ ولم يقتلهُ

ولما ان رزق بولد كان الشفيع لبقاء اخيهِ والمنقذ لهُ من الموت ما فطرتهُ عليهِ الطبيعة من السذاجة . ولما اوفى على الوفاة فكر انهُ اذا اوصى بالملك لابنهِ على حسب

العادة الجارية والقاعدة المتبعة في البيت وهو في سن اثنتي عشرة سنة لم يأمن عليهِ بائقة الجيش الذي كان حينئذٍ في شغب فرأى ان يولي اخاهُ وهو الساذج فلا يلبث الجيش ان ينتقض عليهِ لقلة تدبيرهِ وحينئذٍ لا يكون امامهم سوى ابنهِ مرشحاً للملك . وقد جاءَت الحوادث مطابقة لما دبرهُ فلم يمكث اخوهُ السلطان مصطفى الآَّ بضعة اشهر في الملك ثم خلعوهُ . ومن هنا يبتدئ تاريخ الخلع في ملوك آل عثمان حتى صار كانهُ فيهم طريق مسنون . فان عددهم يبلغ اربعة وثلاثين سلطاناً لم يمت على فراش ملكهِ منهم الآَّ تسعة عشر سلطاناً والباقون ماتوا بين مخلوع ومقتول وشهيد منهم احد عشر مخلوعاً وثلاثة تنازلوا عن الملك من تلقاء انفسهم وواحد مات شهيداً في الحرب واليك البيان

(الخلع الاول) خلع السلطان مصطفى الاول لسذاجتهِ وعدم لياقتهِ للحكم . وقد كان رحمهُ الله آية في التبذير والاسراف . ومن نوادرهِ انهُ كان يقضي وقتهُ مطلاً على البحر وبجانبهِ مال الرعية فيرمي الدينار في اثر

الدينار ليطرب من رنته في الماء ولئلاَّ يحرم السمك كما كان يقول مما يتمتع بهِ الانسان في قضاء حوائجهِ الى غير ذٰلك من الاعمال . فثار عليهِ العسكر فخلعوهُ بعد بضعة اشهر من ولايتهِ ثم سجنوهُ

(الخلع الثاني) وتولى بعدهُ السلطان عثمان الثاني ابن السلطان احمد الذي تركهُ والدهُ في الثانية عشرة من العمر كما ذكرنا آنفاً . فاشتغل باللهو والشهوات فافرط واسرف وكان يكره العساكر وكان اهتمامهُ بتعبير الاحلام واعتقاد الاوهام وتسلط عليهِ الاغا وخوجه افندي شيخهُ . وكان شديد الولع بالتجسس ايضاً ولكن لم يمنعهُ الخوف ان يباشر التجسس بنفسهِ فكان يخرج متنكراً في الاسواق ليقف على من يخالف امرهُ في تناول المسكرات وتدخين التبغ . فانهُ كان قد شدد في النهي عن تعاطيهما فكان اذا عثر على من يشرب الدخان او من يتعاطى شيئاً من الخمر امر بقتلهِ في الحال والتمثيل بهِ . وما زالت هذه حالتهُ حتَّى راق لهُ ان ينقض عادة ابائهِ واجدادهِ من سلاطين آل عثمان

بالتسري بالشركسيات فاراد ان يتزوج من بنات الامراء بالعقد الشرعي فعقد لهُ على بنت الوزير وبنت شيخ الاسلام فوجد العسكر هذا العمل من المنكرات وانتهزوا فرصته فهموا بالانتقاض عليهِ. ولما احسَّ بذلك اراد ان يفرق جمعهم فادَّعى انهُ متوجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج فاستعانوا بشيخ الاسلام ليمنعهُ من حج بيت الله . فافتى بان السلطان لا حج عليهِ فلم يذعن لفتواهُ واقام على رأيهِ وتوجه الى اسكدار وضرب خيامهُ هناك واستعد للسفر الى الحجاز فامسكوهُ واعلنوا خلعهُ للحج الذي كان ينوي عليهِ ووضعوهُ في السجن ثم قتلوهُ

(الخلع الثالث) واخرجوا السلطان مصطفى ذلك الساذج ليتولى الملك فظن انهم يريدون قتلهُ فطأطأ لهم رأسهُ ومد عنقهُ امتثالاً وخضوعاً فوقعوا على اقدامهِ يقبلونها. ولما جلس على سرير الملك تجدد بسبب قتل عثمان الثاني من سلاطين آل عثمان ما صار بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان رضي الله عنهُ من طلب الثار بدمهِ. فقام اهل

الولايات يطلبون بدم المقتول واستقل بعضها والسلطان لا يدري شيئاً من ذلك لبلاهتهِ المعلومة ولم يبقَ الاَّ ثلاثة عشر شهرًا في السلطنة ثم خلعوهُ

(الخلع الرابع) لما تولى السلطان ابرهيم السلطنة مال الى شهواتهِ وكان مسرفاً مبذرًا حتَّى ساءَت احوال الدولة في ايامهِ وعمت الرشوة سائر الانحاء وكان مولعاً بحب الفراء السمورية حتى انهُ كان لا يسأَل الجيش عن انتصاراتهِ واسلابهِ الاَّ ليعلم ما جاءُوا لهُ بهِ من الفراء في غنائمهم . ومن غريب حبهِ للفراء ان هرة ولدت عندهُ فصنع لها وليمة وفرش الحجرة الَّتي كان فيها النفاس ليلتها بجميع ما في خزائنهِ من الفراء الثمينة اكراماً لها . وخرج في يوم عيد على اهل مملكتهِ لابساً كل ما في الخزائن من الجواهر والحلى ولم يرجعهُ عن هذا الاَّ حيلة وزيرهِ فانهُ عرض عليهِ انهُ اذا ملأَ الناس عيونهم منهُ على هذه الصورة خشي عليهِ تأْثير العين فنزعها . وهو الذي وقف في اثناء سير موكبهِ على بائع لبن فطلب منهُ وشرب وهو على جوادهِ فاحتال

الوزير للاعتذار عن هذا العمل بقولهِ ان جلالة مولانا
السلطان سمع ان الناس يغشون اللبن فاراد ايدهُ الله ن
يمتحنهُ بنفسهِ الشريفة اشفاقاً على رعيتهِ . وهو الذي اخذ
ابنهُ الرضيع من مرضعتهِ وضرب بهِ حوضاً من المرمر فكسر
جبهتهُ لكيلا يكون في البيت العثماني غيرهُ فشفاهُ الله وصار
اطول ملوك آل عثمان حكماً بعد السلطان سليمان فانهُ حكم
اربعين سنة . وكانت الدولة في زمن السلطان ابرهيم متتابعة
الانتصار والظفر وفي ايامهِ فتح العسكر جزيرة كريد الاَّ انهم
سئموا منهُ فتألبوا عليهِ وخلعوهُ بعد تسع سنوات من حكمهِ

(الخلع الخامس) ثم تولى بعدهُ ابنهُ السلطان محمد

الرابع وهو في سن اربع سنوات . وكان مشهوراً بشدة
شغفهِ بالصيد وقد قضى مدة ملكهِ في الفيافي والقفار
للصيد ويعدون مدة اقامتهِ في قاعدة سلطنتهِ مع طول زمن
حكمهِ بالاشهر . وكان قد منح الله الدولة ووهبهُ من فضلهِ
رجالاً من اهل الفضل والتدبير وهم رجال العائلة المشهورة
بكوبرولي فتولى الصدارة منهم الجد والابن والحفيد

فشيدوا اركان المملكة وضبطوا الجمهور ونظموا الامور
والسلطان مشغول بالصيد في جبال الروم ايلي . ولما
توفي احمد باشا كوبرولي واسطة عقد هؤلاء الصدور واشهرهم
حزماً وعزماً وحلاً وعقداً وهو صاحب الكتبخانة المشهورة
بقرب مدفنهم بالاستانة وقعت امور الدولة في يد من لا
يحسن سياستها وتقلد المناصب من لا يستحقها وتولى الاحكام
من ليس باهل للقيام بها والسلطان مشغول بصيده والدولة
مشغولة بحصار ڤينا الشهير الذي رجعت منهُ غير فائزة .
وكان هذا اول انحطاط السلطنة العثمانيَّة الذي لم ترتفع
بعدهُ وهو يماثل عودة نابليون الاول من موسكو . ولما
تولى الكوبرولي الثالث وكيلاً عن الصدر لان الصدر
كان في الحرب كما جرت بهِ عادة الدولة جمع العلماء في
جامع ايا صوفيا وكشف لهم سوء الاحوال وما لحق
بالدولة فاعلنوا عند ذلك خلع السلطان ولكنهم لم يحبسوهُ
ولم يقتلوهُ بل تركوهُ في ادرنه يصطاد ما عاش فبقي ست
سنوات في لذة الصيد والقنص

(الخلع السادس) وتولى الملك مصطفى الثاني وقد وقعت في ايامهِ الحرب بين الدولة وروسيا والنمسا فتبسم الانتصار للدولة اولاً ثم كشر لها عن نابهِ ثانياً فتداخلت انكلترا وهولانده لفض الحرب وعقد الصلح فتم امرهُ بالمعاهدة المعروفة بمعاهدة قرلويتس ولكن العساكر العثمانية رأوا ان هذا الصلح يحط من شرف الدولة وقدرها ويخفض من مجدها وعزها (ومَن للدولة بهم ليروا معاهدة برلين) — فثاروا على السلطان وافتى العلماء بخلعهِ فخلعوهُ

(الخلع السابع) ثم تولى السلطان احمد الثالث فطالت مدتهُ نحو ثماني عشرة سنة وهو صاحب الحرب الشهيرة مع بطرس الاكبر وكاترينا . وكان الذي يباشر الحرب محمد باشا البلطه جي الصدر الاعظم فتمكن من حصار بطرس الاكبر والتضييق عليهِ فكاد يأخذهُ اسيراً ولكن جاءَتهُ كاترينا فرشتهُ فانفض الحصار في الحال ونجا بطرس الاكبر وفي نجاتهِ كان الويل على الدولة لليوم . ومن نوادر ما يحكى ان هذا الصدر لما سئل عن اغفالهِ لاسر

القيصر وتهاونهِ في امرهِ اجاب ولمن نترك ملك الروسيا يدبر شؤونهُ . ولما رجع الجيش مكسورًا على هذه الصورة الفظيعة خشي السلطان العساكر فأراد ان يبعدهم باثارة حرب على الفرس فبادرهُ العساكر بالخلع

(الخلع الثامن) تولى السلطان سليم الثالث الملك مدة تسع عشرة سنة وهو يلقب عندهم بفاتح مصر الثاني . لان في مدتهِ اخرج الانكليز الفرنسويين من مصر . وكان يحب ان يدخل نظام الجيوش الاوربيَّة في الجيش العثماني فلم يقبل الانكشاريَّة هذا الانقلاب . واستصوبوا خلعهُ وطلبوا من عطاء الله افندي شيخ الاسلام ان يصدر فتوى شرعيَّة بذلك فاصدر الفتوى بهذا النص "هل يترك السلطان الذي يخالف القرآن الشريف على تخت السلطنة" الجواب "كلاَّ" وبناءً على ذلك تمَّ خلعهُ

(الخلع التاسع) ثم تولى بعدهُ السلطان مصطفى الرابع وكان اكثر عساكر الدولة الذين من حزب السلطان سليم الثالث المخلوع مقيمين خارج الاستانة . فلما بلغهم الخبر هموا

ان يعيدوهُ الى الملك فاستشعر السلطان مصطفى بذلك فبادر
الى قتل عمهِ السلطان سليم قبل حضور العساكر لارجاعهِ الى
الملك. فلما دخل العساكر الاستانة خلعوا السلطان مصطفى ثم
قتلوهُ ولم يبقَ وقتئذٍ في بيت آل عثمان الَّا السلطان محمود وحدهُ

(الخلع العاشر) هو خلع السلطان عبد العزيز وهو
مشهور واسبابهُ لا تغيب عن ذاكرة احد اليوم فلا حاجة
للاطالة بذكرها انما نقول ان الفتوى الشرعية الَّتي صدرت
بخلعهِ كانت مبنيةً على انهُ مختل الشعور

(الخلع الحادي عشر) وهو خلع السلطان مراد
وذلك مشهور معلوم وقد بنوهُ ايضاً على انهُ مختل الشعور

واذ فرغنا من المخلوعين من سلاطين آل عثمان
فنذكر المتنازلين عن السلطنة ونذكر الشهيد رضي الله عنهُ

(التنازل الاول) تولى مراد الثاني الملك وكان
رجلاً صالحاً يحب الراحة ويميل الى الخمول فتنازل من
تلقاء نفسهِ لابنهِ السلطان محمد الثاني وذهب الى مغنيسيا
فسكنها مستريحاً خالي البال. ثم جاء الخبر باستدعائهِ الى

الملك ثانياً لان العساكر الذين شرعوا في حرب الروم هربوا وابنهُ صغير لا يستطيع ملافاة هذه الخطوب فحضر وتولى الملك وقاد العساكر وباشر الحرب وقد توجه ابنهُ الى مغنيسيا مكانهُ حتَّى اذا انتصر واستتبت الامور وهدأَت الاحوال تنازل مرة ثانية وهو التنازل الثاني . واعاد ابنهُ الى الملك ورجع هو الى مغنيسيا وكل هذا عن طيب نفس من الاب والابن

(التنازل الثالث) هو تنازل السلطان بايزيد الثاني حين حاربهُ ابنهُ سليم لعهدهِ بالملك لاخيهِ فترك لهُ الملك حقناً لدماء المسلمين واراد ان يتوجه الى الحج ثم يعود الى مغنيسيا للاقامة فيها ولكن بعد سفرهِ بثلثة ايام توضأَ لصلاة العصر في اثناء السفر فمات

اما الشهيد فهو مراد الاول رضي الله عنهُ قتل في واقعة من حرب الصرب وكان بعد الانتصار قد خرج لينظر القتلى فطعنهُ احد الاسرى ثم نقل الى بورسه الَّتي تسمى باسمهِ خداندكار . انتهى

فهرست ما هنالك

